

جمال علي الحلاق

آلهة

في مطبخ التاريخ

قراءة في تاريخ سورة الفاتحة



مكتبة

الفكر الجديد

منشورات الجمل

جمال علي الحلاق: آلهة في مطبخ التاريخ

جمال علي الحلاق

آلهة في مطبخ التاريخ

قراءة في تاريخ سورة الفاتحة

منشورات الجمل

جمال علي الحلاق: آلهة في مطبخ التاريخ
الطبعة الاولى - ٢٠١٢
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة
لمنشورات الجمل - ألمانيا

© Al-Kamel Verlag 2012
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



«سَأُظهِرُكَ عَلَى سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِلَهَةِ»

كلكامش

الحقيقةُ شيءٌ آخر، لم نعوّد على سماعه بعد.

أبي

قلتُ لك يوماً: «إني مهاجرٌ الى نفسي»، ويبدو أنّها هجرةٌ بلا انتهاء، ومن الصعب جداً أن أتوقّف وقد أكلتُ أقدامي كلّ هذه السنين، ثمّ لماذا التوقّف أصلاً؟ أنا تجربةٌ في السؤال الذي يبحث عن أسئلةٍ أخرى.

أبي

كيف لي أن أنسى نحيبك الأخير؟

لم يكن نحيباً أبداً، كان جدلاً إلهياً، كان احتجاجاً هائلاً، كنتُ تحاول إيقاظ كائنٍ غير عابٍ بمصائرتنا.

إليك أولاً

والى ذلك الكائن أيضاً

هذا الكتاب.

مدخل عام

الإختلاف لا يتحقق بالكتابة عن مفهوم الإختلاف، إنه ليس تجربة مكتبية، بل هو شأن (فردى/ إجتماعى) يحدث تلقائيا حين تكون هناك رؤية مختلفة ناضجة، وتمتلك إصراراً وجودياً في الإعلان عن ذاتها عبر الممارسة. وأنا هنا لا أطمح في أن أكون كاتباً مختلفاً بقدر ما أطمح في أن أتمكن من جعل اللغة مطوعة في توضيح ما أريد، دون لفّ أو دوران.

سيكون من السهل إستيعاب هذا الكتاب إن كان لدى القارئ إستعداداً على تقبل فكرة - تبدو في غاية المنطقية والعقلانية إلا أنّ نتائجها - تتقاطع تماماً مع إرث تاريخي طويل وثقيل، يعمل على غلق مسامات التنفس في عالم مختلف. أي أنّ ما نعرفه لا يعني كلّ المعرفة، وما نؤسس عليه قد لا يكون صلباً مثلما نتوقع، بل لعلّه الفراغ بذاته، وليس غريباً أن تنهض أمة بأكملها على فراغ.

يقوم هذا الكتاب على أساس منهج النشوء والإرتقاء الذي إعتّمه داروين في الكشف عن آلية التغير التدريجي من الأبسط الى الأكثر تعقيداً في سلسلة الكائنات الحية، وأنا هنا أنظر للأفكار وللغات التي تحتويها باعتبارها كائنات حية أيضاً لها بدايات منطقية - أي أنني أبدأ بإسقاط القول بتوقيفية اللغة، وأقف الى جانب إعتبارها نتاجاً بشرياً محضاً - وأنّ هذه البدايات لا تزال في دور التشكّل، أي أنّ ما بدأ لم يكتمل بعد كالكون تماماً، وأنّ هناك مراحل كثيرة من

عملية تشكّل اللغة وصيرورتها المستمرة قد انقضت وفقاً لقوانين النشوء والإرتقاء، وأنها لم تترك وراءها ما يشير إليها، لكننا سنرى أيضاً أنّ ثمة قوانين جانبية أخرى قد تمتلك من ثقل التأثير بحيث تتمكّن من إدارة دفعة عملية التطوّر، أي أن تكون فاعلة في تعجيلها، وقد تفقد العملية بأكملها إلى نتائج أخرى مغايرة تعلن انفصالها حال نشوئها، لكنّها في النهاية تظلّ تتصل بحبال سرية مع كلّ ما كان قبلها.

أنطلق من فرضية أولى تقول أنّ كلّ كلمة داخل وعاء اللغة تمتلك تاريخاً خاصاً بها، يبدأ بولادتها على صعيد التداول الإجتماعي، ثمّ يفتح سجل تحولاتها وقدرتها على استيعاب دلالات أخرى، قد تكون مناقضة تماماً لبدايتها الأولى، لكنّها في النهاية - مثل أيّ شيء يمتلك بدايةً - تصل إلى الجدران النهائية لعالمها الخاص، فتتوقّف كمتحجرة داخل القاموس العام للتذكّر.

وبالتأكيد فإنّ نشوء وتطور أيّ كلمة يعتمد كلياً على مغذيات إجتماعية بحته، تعمل على تفعيل تشكّل الكلمة داخل رحم اللغة العام، وبالتالي تفعيل حضور الكلمة ضمن الحياة اليومية، وإنّ انقطاع هذه المغذيات الإجتماعية أو ضمورها سيؤدي حتماً إلى ضمور الكلمة، ومن ثمّ إنقراضها على الصعيد الإجتماعي، رغم بقائها كمتحجرة داخل القاموس في حالة توقّف عملية الأرشفة.

بعض الكلمات تولد لتلتصق بالمقدّس فيتحاشى الناطقون بها لاحقاً الوقوف عندها، أو تأمل بدايتها بعيداً عن هالة التقديس، خشية إحداث خدش في الجلد الأملس للمقدّس ذاته.

أتحدّث هنا عن الكلمات التي قُدّر لها أن تكون أسماء لآلهة فحسب، أي تلك التي لا يمكن إطلاقها كأسماء على أيّ كائن آخر مثل (أهورا مزدا، يهوه، الرحمن، الله).

والقول بولادة هذه الكلمات يعني بدءاً أنّها نتاج مراحل تاريخية معينة لها ظروفها (الاجتماعية/ الاقتصادية/ السياسية) كلّ ذلك داخل بوتقة البعد الثقافي الخاص والعام، مثلها مثل كلمات أخرى كالإيديولوجيا، أو الديالكتيك، أو التفكيكية، ويعني ذلك أنّ الكلمة - أي كلمة - تشير ضمناً الى مستوى من الوعي الإجتماعي بلغه الإنسان، أنتج - هذا الوعي - هذه الكلمة التي يمكن أن تحتوي اللحظة التاريخية بكلّ تفاصيلها.

فاللغة في النهاية هي نمو وعي الإنسان وقدرته على فهم التحوّلات التاريخية الكبرى بواسطة مفردات قليلة معينة تتغيّر مع الوقت.

سألني إبنّي (علي) ذو الخمسة عشر ربيعاً: أيهم أكثر سعةً، اللغة أم التاريخ؟ قلت: اللغة عمر الإنسان، لكنّها تزحف على التاريخ، الإنسان يحاول أن يحتوي كلّ شيء.

ولأنّ الوعي البشري نتاج خبرة تتراكم بشكل يومي، فإنّ اللغة نتاج تراكمي أيضاً، وأنّ تراكم اللغة يوميّ أيضاً، والكلمة في النهاية هي ورقة أو ثمرة في شجرة نسب الكلمات، وعملية تتبّع هذا النسب سيؤدي حتماً الى كشف المجري الحقيقي لنمو وعي الانسان وعلاقته بالكون والأشياء.

وكما يقوم البيولوجي بإدراج الكائنات الحيّة ضمن تصنيفات تحدّد السلالة والجنس، يقوم اللغوي أيضاً بإدراج الكلمات تحت تصنيفات يتبنّاها علمي الصرف والإشتقاق بحيث يمكن بسهولة إثبات منطقية نشوء وتطور الكلمة داخل أيّ لغة، لأنّ اللغات تخضع في النهاية لآليات النشوء والارتقاء، وأنّ هناك غريزة يومية للغة تجعل الكثير من الكلمات واقفة إما على حدّ التطور، أو على حدّ الإنقراض، وعليه فإنّ علمي الصرف والإشتقاق هما النافذة الأولى التي يمكن من خلالها الإطلاع على الجذور البعيدة لأصول الكلمات، وبالتالي

الإطلاع على الجذور البعيدة لأصول الوعي البشري ومراحل تطوره.

ولعلّ من المثير جداً أن نتتبّع هجرة كلمة واحدة من لغة الى أخرى، أو هجرتها من دلالة الى أخرى داخل لغة واحدة، أو من وجودها الاجتماعي في المركز الى وجودها على الهامش، أو تتبّع تحوّلها من كلمة تشعّ بذاتها الى ظلّ لكلمة أخرى، وسنكون هنا إزاء سؤالين متضادين في وقت واحد معا: -

أولاً: ما الذي جعل الكلمة حيّةً طيلة وجودها ضمن إطار اللغة المحكيّة؟

ثانياً: لماذا إنقرضت الكلمة بعد إزدهارها؟

إستخدام الإتجاه ونقيضه في صياغة السؤال سيكشف لنا بوضوح صاريخ البدايات البعيدة التي كانت وراء تأسيس بعض المنظومات الفكرية العامة، ومن ثم إختفائها على صعيد الواقع الحياتي.

وأنا هنا أحاول أن أتحدّث عن تشكّل وصيرورة البعد الديني داخل اللغة، وكيف للمقدّس ككلمة أن تخترق حاجز الاختلاف - من لغة الى أخرى، أو من دلالة الى أخرى داخل نفس اللغة - لتدخل كجزء مقدّس، أو كظلّ لمقدّس داخل منظومة معرفية أخرى.

هذا الكتاب هو محاولة في تتبّع نشوء وهجرة بعض الكلمات، وتطوّر دالاتها، أو إنكماشها وضمورها، بعد أن تتزيّا بلباس تجربة حياتية لكلمة أخرى، وقد تُنسى من القاموس الحياتي، وقد تكون الأكثر تداولاً على الألسنة، لكنّها الأكثر نسياناً أيضاً، لأنّها لا تشير الى ذاتها، كالظواهر الخفي، أي تفقد خصوصيتها، وتصبح ظلاً في المعجى الاجتماعي الجديد.

سأبدأ كتابي هذا بمبحث أوّل عام أشبه ما يكون برحلة سياحية في تاريخ الآلهة: نشوءها وتطوّرها، أنسابها وتضامرها، إنتصاراتها، أو إنهزاماتها كاتنها الوهيتها، أو وقوعها في الأسر الى أجلٍ مستمى، أو الى الأبد.

هذا وسأقوم بتخصيص الفصلين الأخيرين من المبحث الأول لقراءة بعض التصوّرات الحديثة عن مفهوم (الإله) في حقل الفيزياء والفلك تحديداً، وسيكون أحد الفصلين مخصّصاً لقراءة (إله آشتاين) عبر قراءة سياحية للنظرية النسبية العامة، بينما سيكون الفصل الأخير مخصّصاً لقراءة (إله ستيفن هاوكنغ) من خلال تعارضه مع النظرية النسبية واقترابه من المنهج الكوانتي واعتماد مبدأ الريبة في قراءة هندسة الكون.

ثمّ أدخل مباشرة في مبحث ثانٍ أبدأ فيه الحديث بشيء من التفصيل عن إلهين كانا في البدء متمايزين، لكلٍ منهما هويته الشخصية التي تحدّد ولادته التقريبية، وانتشاره كإله معبود، هما (الرحمن والله)، أتحدّث فيه عن نسيبهما معاً، وانتشارهما سواء ضمن حقل جغرافية اللغة كزمان، أو ضمن حقل جغرافية اللغة كمكان أيضاً.

ثمّ أحاول في مبحثين لاحقين (المبحث الثالث، والمبحث الرابع) أن أتتبّع عملية تحوّل كلمة (الرحمن) من إسم علم خاص قائم بذاته، الى صفة، أو ظلّ لإسم (الله) من خلال قراءة مركّزة في الأصول التاريخية لسورة الفاتحة في القرآن.

المبحث الأول

المعرفة الجديدة تخلق إلهها الجديد

تمهيد

أ - الإله يحب أن يتخفى

(البحث عن إله) همّ إنساني بدأ منذ أن وقف أول إنسان أمام سعة ومجهولية الأرض والسماء، ولا يزال هذا الهمّ إنسانياً حتى بعد أن بدأ يرسم شكل الكون، يحدّد سعته، ويقترب من الغوامض التي تسكن فيه، التي تهدّده بالإنقراض كالشقوق السوداء، أو سرعة اتّساع الكون، وفقدان الحرارة المستمر، بل إنّ المعرفة تحاول دائماً أن تعطي صورة للإله تتوافق مع درجة اتّساعها، أو إنكماشها.

علمتني تجربتي الذاتية أنّ الإله - كموجود ذهني - يُحب أن يتخفى، وأنّه يتمثّل دائماً وفق تصوّرنا له، أي أنّه لا يتعدّد كثيراً عن مستوى وعينا لوجودنا في العالم، وأنّ تجاربنا الذاتية كإنوجاداتٍ مختلفة تجعل دائرة الإله أكثر اتّساعاً من دائرة الكائن الإنساني الفرد، غير أنّها لا تتسع أبعد من دائرة الكائنات الإنسانية ككل، من هنا إربط وجود الإله واتّساعه بوجود الوعي الإنساني واتّساعه.

ب - العلم والميثافيزيقيا

وقد كانت ولا تزال تجربة (البحث عن إله) تجربة وجودية إنسانية بحثة، وبهذه التجربة فقط يمكن أن نعتبر الإنسان بوابة الميثافيزيقيا على الأرض. وبالتالي فإنّ البعد الميثافيزيقي هنا لا يتوقّف على الاعتقاد بالأديان القديمة،



ولا ينحسر ضمن دوائرها، بل يتجاوزها أيضاً، لتندرج كل المدارس المثالية ضمن نطاقها، ليس هذا فحسب، بل أن أشكالا من التفكير المادي لا تزال تمت بحبال سرية مع الميتافيزيقيا، فبعد أن فقدت الأديان الكلاسيكية قدرتها على الإقناع بالنسبة للعقل العلمي الحديث، نجد أن بعض العلماء لا يزالون الى الآن يحملون بذرة الاعتقاد بوجود كائن ضروري، وأنهم داخل مختبراتهم العلمية وداخل مرصدهم الفلكية يحاولون الإقتراب من (القصدية) التي تنسج الكون، والتي هي (قصدية الكائن الضروري)، لكنه في النهاية، كائن لا علاقة له بأهورا مزدا أو بيهوه أو بالله، أي أن هؤلاء العلماء ينطلقون من أرضية تجاربهم البحثية، لا من أرضية إعتقاداتهم الدينية، والتجربة البحثية الراهنة لا تلزم الفرد بإدعاء طقوس وشعائر أصبح وجودها لا عقلياً نتيجة لنمو وانفتاح الوعي البشري.

بل يمكن القول أن الدين كمعرفة بحثية لا يمكن له إلا أن يكون دعاء، أو تيممة معلقة على باب المختبر العلمي، لكنه لا يجرؤ على دخول المختبر، ولا صلة له بمجرى التفكير العلمي الحديث، وأنه مع لحظة بدء التجربة العملية ينتهي الدين كمعرفة يمكن أن يؤسس عليها، بل أن فلسفة العلم الحديث قائمة في جوهرها على البحث عن نقص داخل بناء وهندسة النظرية العلمية السائدة لا عن ما يدعم النظرية، لقد تجاوز العلم مفهوم المعرفة المطلقة، وأصبح الذي يتحدث بيقين تام مثل عنكبوت يبنى بيته على عقول التلاميذ.

العالم - بكسر اللام - يشعر الآن بالحرية إزاء قصدية الكائن الضروري، ولا خوف ولا طمع في العلاقة التي تشده إليه، على العكس تماماً ثمة رغبة جارفة - لدى العالم - للتعرف على النظام الذي من خلاله يسير الكائن الضروري برمجة الكون (تجربة أنشتاين نموذجاً).

ج - التوحيد تضيق إجرائي

وكما أنّ لكلّ فرد تجربته الذاتية الخاصة في البحث عن شيء ما، أو في النفور من شيء ما، فإنّ لكلّ فرد تصوّره الخاص عن إلهه الخاص جداً، الذي قد يتشابه مع الآلهة المجاورة، لكنّه لا يتطابق معها أبداً، ذاك أنّ التطابق هنا هو محاولة في تضيق سعة مفهوم، ومن ثمّ، وجود الإله، لأنّ سعة مفهوم الإله قائمة على التعدّدية، وتتناقض أصلاً مع التوحيد، فالتوحيد بعبارة صريحة هو عملية تضيق إجرائي في سعة الممارسات الإجتماعية للأفراد، بل هو صبّ الممارسات الإجتماعية في قالب واحد، بحيث يخلق لنا أجيالاً من البشر يكرّرون دورانهم داخل دائرة ضيقة، لأنّ التصورات التي تُضفى على الإله يتم إسقاطها مباشرة على الواقع الحياتي اليومي كممارسات إجتماعية، تحدّد وتحجّم الحريّات الشخصية للأفراد الذين يؤمنون به، وهذا يقود في النهاية الى توقّف أو قتل تجربة (البحث عن إله)، ومن ثمّ توقّف نمو وضرورة الإله ذاته، وعليه فالدين الثابت يقتل الجانب الميتافيزيقي في الإنسان، لأنّه يجعل الماوراء مجسّداً، يولجه في الطبيعة.

الأديان التي ثبتت صورة الإله ساهمت في قتل ألّهتها، وبالتالي ساهمت في قتل قدرة الإنسان على التجاوز.

لقد كانت الميتافيزيقيا نافذة الإنسان للخروج لكنّها أصبحت مع ثبات الأديان خُرمًا لإنكماش الإنسان وتقنّفه.

د - الجلوس على العرش

يبدو أنّ العرش لا يخلو من جالس عليه، ومثلما يتوالى الملوك تتوالى الآلهة، تراهم عليه بين جالس ومخلوع، فعلى صعيد تجربتي الذاتية، وأنا أقرب الآن من منتصف العقد الرابع، أرى الإله تلبّس بلبوسات وتمثّلات

عديدة، ابتداءً من تمثله بهيئة أبي القوي المُطعم الكاسي، ثمَّ البستاني البيئة الاجتماعية تمثله بالله، لا أذكر متى أزاح (الله) أبي من على عرشه، فقد حدث ذلك تدريجياً، حتى آتني لا أذكر لحظة الإزاحة، كما لا أذكر آتني كنت بلا إله، هكذا انتبهت وكان الله يجلس على العرش، بعد أن فقد أبي حالته الأولى، فَقَدْ أسطوريته، فَقَدْ بُعْذَ الميتافيزيقي، وتحول الى رجل كالآخرين من الرجال (رغم أنَّ الموت أخيراً أعاد إليه ميتافيزيقيته الأولى، أحسنني بخلو العرش ولو الى حين).

هـ - المعرفة تتجاوز حدود الغيب

ثمَّ أنَّ أسألتي أخذتني بعيداً، فلم يعد (الله) التمثل الأقصى للإله، بدأتُ أبحث في المناطق العمياء داخل المنظومة المعرفية لله، الله كما حدّده الإسلام، وكما قصَّ علينا القرآن من حدود الغيب التي تفصلنا عنه، كسقوط المطر، وما تحمل الأرحام، وما يكسب الإنسان غداً، وهي معرفة تجاوزها العلم والنظم الاجتماعية الحديثة، فبحسب متابعة تقارير الأرصاد الجوية نستطيع الآن أن نعرف إن كانت السماء ستمطر بعد أسبوع أو أكثر، وعليه نحدّد إن كنّا سنقوم بنزهة ترفيهية أم لا، كذلك بفضل التقنية الحديثة وانفتاح علم الهندسة الوراثية أصبحنا نعرف ما في الأرحام من ذكرٍ أو أنثى.

قالت لي إبتني (بلاد) - ذات العشرة أعوام - وكنا في الطريق الى مدرستها: «أَنَّ (مس لفابا) ستلد بنتاً يوم الإثنين القادم»، فلما جاء الثلاثاء الذي يليه كان التلاميذ في ساحة المدرسة يتحدثون عن المولودة الجديدة فعلاً، أي تمَّ تحديد موعد الولادة إضافة الى تحديد جنس المولود.

ليس هذا فحسب، بل أنَّ العلماء قد توصّلوا أخيراً الى التدخّل في صياغة وتحديد جنس الجنين بحسب طلب الأبوين.

أما قضية الكسب غدا فإنَّ المجتمع المدني بمؤسَّساته، وانخراط الفرد ضمن النظام العام، بإعتباره موظِّفاً فيه أو عاملاً ثابتاً، أصبح يُدرك دخله المادي الخاص خلال شهرٍ أو خلال سنة، لذا نرى الناس في المجتمعات المتحضرة ترتب حياتها لسنوات قادمة، وبفضل الضمان الاجتماعي دخلت الطمأنينة الى قلب الفرد فما عاد قلقاً من غدٍ أو مما يجيء به الغد.

و - التجوّل بين الآلهة

بدأت التجوّل داخل الطوائف والفرق الدينية الإسلامية، لم أصادف طائفةً إلا وطرقتُ بابها أنلّمس صورة الله في مخيال المؤمنين بطريقتها، تدرّوشُ أيضاً، هزرتُ رأسي حتى تصدّع، هزرتة كما لو كان مُبتلاً فجفّ، ثم تجاوزت الإسلام الى الأديان المجاورة، فقرأت ما وقع بين يدي من كتبها المقدّسة ومن شروحات وتفاسير، نقبت في تاريخ كلّ دين - صادفني على الطريق - بحثاً عن الأصول البعيدة، فقادني هذا الى التجوّل بين آلهة الوثنيين أيضاً.

وكانت هجرتي داخل المكان نافذة للهجرة داخل الزمان، الهجرة من بلد الى بلد، ومن قارة الى أخرى، هي هجرة داخل الزمان أيضاً، الزمان كماضٍ وك مستقبل، لأنّ الأرض - ككوكب - في النهاية لا تعيش لحظة زمنية واحدة، ذاك أنّ المعرفة هي الزمان، المعرفة كممارسات إجتماعية، وليست حواراً في مقهى، وهذا يقودنا الى القول بتجربة ابن المقفّع حين قال: «الزمان الناس» (الآثار الكاملة: ١٦٠)، والكوكب بناسه لا يعيش لحظة معرفية واحدة.

تنفّستُ رائحة القرايين المقدّمة تحت أرجل آلهة الهندوس والبوذيين، وظلّت عيني تتلقّت هنا وهناك بحثاً عن نافذةٍ أخرى، كان قلقي ينمو، وكنت أتبع السؤال الى أقاصيه، غير معتبرٍ بالأسلاك الشائكة التي تحجّم القدرة على الخروج من جيب التصوّرات الجاهزة، وهكذا جَلَسْتُ أسئلتي على العرش.

خرجتُ، وكان ثمة ما يجعلني أركض وحيداً، على طريق يزداد وعورةً وضيقاً، ولا زلتُ - حتى كتابة هذه السطور - أشعر بخيطة غير مرئي، يجرّني بقوة نحو مجهول يحيط بالحياة والموت، يدفعني الى البحث بعيداً عن كلّ تمثّلات الإله التي عرفها الإنسان منذ البداية الأولى حتى لحظتي الراهنة.

دائماً كنتُ أبحث عن إله يخصّني، ينتج عن وعيي الخاص، يحثّني على أن أكون شيئاً آخر خارج الأطر الجاهزة، وخارج - حتى - الأطر التي أخلقها لنفسي بنفسي، بل كنتُ أبحث دائماً عن إله يحثّني على التنافس معه، لذا لم أتوقّف طويلاً عند تصوّر ما بعينه، بل مررتُ بالتصورات قدر استطاعتي، فقط لأعرف أنّ الإله يُحب أن يتخفّى، وأنّه لا يتعد عن الإنسان، وأنّه يضحك هنا وهناك هازناً بالذين يصبّونه في قالب، ويشيرون إليه.

الفصل الأول:

ولادة إله جديد

أ - قفزة طويلة قبل أوانها

أريد أن أقول هنا أنّ الإله إحتياج فردي أو إجتماعي، ينتهي مع انتهاء الإحتياج، وأنّ ولادة أي إله ترتبط إرتباطاً عضوياً بولادة الحاجة الإجتماعية التي تدفع الى ولادته، وبالتالي تدفع المجتمع الى تبنيّه، وعليه فالإله - أي إله - مُتَبَنَّى من قبل المؤمنين به .

بعض التغيّرات الاجتماعية لا يأتي متسلسلاً، بل يبدو كما لو أنّه قفزة طويلة، تُحدِث إرباكاً في بناء الفرد كعضو داخل المجتمع عليه أن يواكب اللحظة المجتمعية، وكلّما كانت القفزة أطول من نفس المجتمع، كلّما إزدادت نسبة الإرباك في بنية أفرادها، وقد ينضوي المجتمع حماسةً أو قسراً تحت إبط القفزة الطويلة، لكنّه في النهاية، مع نهاية الدافع على المواصلة، نرى المجتمع، أو ذوي النفس القصير تحديداً يأخذون بناصية الحياة الى ما قبل القفزة، يعني العودة الى نقطة البدء ثانية، وقد يغالي هذا البعض بالعودة الى ما قبلها، وهو ما أطلق عليه دورة الصفر في بناء المجتمع .

يمكن أن تكون تجربة كلّ من إختاتون في مصر الفراعنة، ورضا شاه في

إيران نموذجاً مثالياً لما قدّمنا، فالأول أقحم المجتمع الفرعوني بلا مقدمات اجتماعية داخل دائرة التوحيد، بينما نرى الأخير قد أقحم إيران قسراً داخل بوتقة العلمانية، فكانت النتيجة إجهاض عبادة الإله (آتون) بزوال الداعي إليه، وانهيار المجتمع العلماني في إيران مع انهيار الحكم الشاهنشاهي.

أي أنّ التغيير لا يمكن أن يكون إلا بوجود رغبة جماعية، وأن تكون هناك حاجة مجتمعية تتضامن مع هذه الرغبة، وأن يكون هناك وعياً واضحاً لمفهوم التغيير ذاته، أن يعي الشارع إتجاه الخطوة القادمة لكي يتبناها، فإذا ما كان المجتمع واقعاً تحت تأثير غيبوية جماعية، كغيبوية الإحساس بحقوق الإنسان مثلاً، كان على الأفراد الذين يرون أنفسهم خارج نطاق الغيبوية الجماعية أن لا يكفّوا عن المبادرة والمحاولة في إيضاح المفاهيم، وقرع نواقيس الانتباه هنا وهناك، لأنّ التغيرات الاجتماعية تحدث أصلاً بمبادرات فردية إمتلك قدرة التأثير فتحوّلت الى تيارات اجتماعية. المطلوب هنا هو التعامل بشفافية مع مجتمع منوم، أو واقع تحت تأثير غيبوية موروثية، ومحاولة إلغاء آليات الفرض والقسر والقهر قدر الإمكان.

دائماً، كانت الآلهة، ولا تزال تولد كما الناس، تنمو كما هم أيضاً، وتشيع فتتمكّن بالمؤمنين بها، وتتوقّف، لكنّها لا تموت، كالأفكار تماماً.

وغالباً ما كانت الآلهة تتداخل فيما بينها، كأن يرتدي إله ثياب إله شبيه، أو مقارب له، ولعلّه يتزيّناً بزّيّ نقيضه، وعلى صعيد العلاقات والتنافس كان التطرّف هو الذي ينتصر دائماً، لكنّه نصر الى حين، نصرٌ يُجهض لاحقاً، وغالباً ما يُجهض بمأساة - لا يقتصر هذا الحديث على الأديان فحسب، بل يصلح تماماً مع الحركات الاجتماعية والتيارات السياسية أيضاً - تقود لاحقاً الى خلق حالة من التكيف الجماعي، تشبه تماماً ما أطلق عليه (هيجل) بمركب



القضية والنفي ضمن قوانين الديالكتيك، هكذا يدخل العقل الوثني كمارسات إجتماعية ضمن بُنية العقل التوحيدي، أو بالعكس، فقد تحالف الآلهة نتيجة لتحالف وتداخل المؤمنين بها (ينبغي الإنتباه لدور وتأثير الهجرات البشرية في إعادة صياغة تمثّلات وصور الآلهة)، فنتج لنا هذه التحالفات، وهذه الهجرات، آلهة جديدة أخرى، بمزايا وصفات جديدة تحدّد سلوك وحياة المؤمنين بها.

ب - أنساب الآلهة

لا زلتُ إنساناً حيّاً من الناحية الطبيعية حتى كتابة هذه الأسطر التي تتحدّث عن آلهة لاقت حتفها على صعيد الممارسات الإجتماعية، وأنّ ذريتها، أو بعض ذوي قرباها يواصل حياته هنا وهناك على الأرض الى أجلٍ مسّى.

لقد أحسّ الإنسان بحتمية النهاية التي تطارده فحاول دائماً - ولا يزال - أن يخلق حلماً لا يطارده الفناء، ومع هذا فإنّ الكثيرين رأوا آلهتهم تنهار وتلاشى، وبالتأكيد قاد ذلك الى إنتحارات - سواء أكانت فردية، أم جماعية - لأنّ الإنسان لا يستطيع مقاومة الفناء دون حلم.

تحدّث الكثير من النصوص السومرية والأكدية والآشورية عن ولادة وأصل الآلهة، وكانت من السعة بحيث إعتبر (طه باقر) هذه الشيمة من أهم وأوضح ثيمات أدب وادي الرافدين (ملحمة كلكامش: ١٩ - ٢٠)، بل أنّ بعض النصوص كانت أشبه ما تكون بشجرة أنساب للآلهة، وهي لا تتحدّث عن أجيالها فقط، بل تحدّثت عن زواج الآلهة والطقوس التي ترافقه، وتحدّثت أيضاً عن حالة إغتصاب حدثت في مدينة (نقّر) أدت الى ولادة (سين) إله القمر، فقد إغتصب الإله (إنليل) «ذو النظر البراق» الإلهة (ننليل) عندما رآها تستحم «في مجرى الماء الصافي»، فأخذها في زورق، وتغلغل بين القصب

(ديوان الأساطير: ٣٩ / ١ - ٤٢).

وكالبشر تماماً نجد إختلاف الأمزجة الإلهية، كما نجد هناك صراع الأجيال، بل أنّ قصيدة التكوين والخلق البابلية تتحدّث عن التقسيم الطبقي للآلهة، فكان هناك آلهة تحكم، كما كان هناك آلهة تعمل، وكيف أنّ طبقة الآلهة العاملة إحتجّت وانتفضت واثارت وأعلنت العصيان على الآلهة المتحكّمة بها، فكانت النتيجة أن تُحال طبقة الآلهة العاملة على التقاعد، بعد أن تمّ خلق الإنسان - كحلّ للأزمة - ليتحمّل عناء الآلهة المتقاعدة (ديوان الأساطير: ٢ / ١١٣ وما بعدها).

وقد اتّفقت النصوص دائماً على أنّ مولد الآلهة سبق ولادة الإنسان، أي أنّها ألغت ضمناً إمكانية اعتبارها إنعكاساً للوضع الإجتماعي، وأنّها كانت ضرورة إجتماعية دفعت الناس الى المساهمة في خلقها وتبنيها.

ومع هذا فقد كان هناك أيضاً ما يشير الى إستمرار تناسل الآلهة، وبالتالي إستمرار ولادة آلهة جديدة، ففي بلد كالنيبال مثلاً، والحديث عن الهندوس فقط، الذين يمثلون أحد أهم وأوسع أربعة أديان فيه، فإنّ الآلهة لا تزال تتناسل أيضاً وتلد، وأنّ عددها - الآن - يفوق عدد النيباليين، فقد ورد أنّها تبلغ ثلاثة وثلاثين مليون إله، من بينها إله يسمى بسيد الحيوانات، وإله يسمى بملك الرقص (the rough guide to Nepal: 514).

ج - تصاهر البشر والآلهة

ولم ينحصر التناسل بين الآلهة فقط، بل كان ثمة زيجات عديدة بين الآلهة والبشر أيضاً، كأن يتزوَّج إله امرأة من الناس، أو قد يتزوَّج رجل من الناس إلهة من الآلهة، وقد أنتجت لنا مثل هذه الزيجات كائنات هي أنصاف آلهة وأنصاف بشر، فعلى سبيل المثال تزوّجت الآلهة عشتار من الراعي، وتزوَّج زيوس كبير

آلهة اليونان من الكمين، فأنجبت له الإله هرقل، فارتفعت بعد ذلك الى مرتبة الآلهة (أساطير الحب: ١٣)، وقد استمرت عملية إعادة إنتاج هذه التجربة كجزء من بنية بعض الأديان التوحيدية كالمسيحية والإسلام، فنحن نرى كيف إصطفى (الأب/ الله/ الرحمن) مريم العذراء كي تكون أمّاً لكلمته أو إبنه، حتى قال المسيحيون أنّ المسيح إله وهو إبن الله، وإعتبره النساطرة نصف إله، فهو إله من جهة الأب، وبشر من جهة الأم (المفصل: ٦/ ٤٩٠)، بينما أقرّ الأيونيون بعقيدة (العذراء) إلا أنّهم رأوا المسيح بشراً مثل غيره من البشر لكنّه إمتاز عنهم بالنبوة (المفصل: ٦/ ٤٩٦).

د - الجنس كاتصال معرفي

ما أريده الآن أن أقوم بتوسيع دلالة الممارسات الجنسية في النصوص السومرية بإعتبارها إشارة الى نمو المعرفة البشرية، وإشارة الى مراحل تطور هذه المعرفة على الصعيد الاجتماعي، وبالتأكيد فإنّ قراءة سريعة للمتبقّي من هذه النصوص سيجعلنا نقف أمام حالة من التقديس كانت شاملة، لم يكن التقديس خاصاً بشيء دون سواه، في البدء كان كلّ شيء مقدساً، الفوق والتحت، هكذا، لا تختلف في ذلك الأرض عن السماء، بل أنّ نصّاً سومرياً تحدّث عن ممارسة جنسية هائلة تمّت بينهما، ورد فيه:

«لأنّ الأرض ذات الجلال، الأرض المقدسة
جمّلت نفسها، من أجل العالم السماوي المهيّب.

وهو، هذا الإله البديع، غرس

في الأرض الفسيحة قضيبه

وسكب دفعةً واحدة في فرجها

بذرة الأبطال، الشجر والقصب،
والأرض بكاملها، مثل بقرة
وجدت نفسها مشبعة بمنى العالم
السماوي الغني

(ديوان الأساطير: ٢ / ٣٩)

الكل مقدس، والكل آلهة، هذا التساوي جعل تأسيس المعرفة أمراً يسيراً،
الكل يعمل من أجل إكمال خلق العالم كي يصل الى ما هو عليه الآن، بل أنّ
كل شيء في العالم إقترن مولده بطقس جنسي مقدس، هو إشارة لتوافق
معرفي، أدى هذا التوافق الى لحظات تاريخية أسست مفاهيم إجتماعية جديدة،
هي في النهاية ثمرة لنمو المعارف البشرية ككل، فزواج عشتار من الراعي كان
تأسيساً للمجتمع البدوي، وزواجها من تموز لاحقاً كان تأسيساً لمجتمع
المدينة، وتنافس الراعي على عشتار هو إمتداد للصراع الاجتماعي بين البداوة
والتمدن.

لقد كانت المعرفة شيئاً مقدساً لأنها نتاج المقدس ذاته - استلام حمورابي
لشريعته من إله الشمس نموذجاً - ومن هنا تحديداً جاء رهاب الخضوع لها،
وصرامة المراقبة والعقاب المجتمعي.

ولأنّ الإنسان قاصر عن رؤية نفسه كائناً فضائياً أو كونياً، جعل المعرفة تهبط
من الفوق، بعد أن جعل التحت مهياً تماماً لاستقبالها، أي أنّ النص السابق
جعل كلاً من وجود الأرض ووجود السماء ضرورياً للآخر، وأنّ نمو المعرفة
بكل تمثلاتها عبر الزمن هو إمتداد لقدسيّتها الأولى عبر الأشياء.

لقد رأيت طائفة دينية في العراق تتأول مفهوم (ولي الأمر) - في النص القرآني
- بأنه لا ينحصر على الحاكم فقط، بل يشمل كل موظفي الدولة، ابتداءً من



الفراش، لأن الله هو الذي جعله فراشاً، وعليه تتسع دلالة الطاعة لتشمل كل البناء الهرمي للحكومة. وبالتأكيد فإن وجود مثل هذه الطائفة تحبّه الأنظمة الحاكمة - خصوصاً تلك التي تعتمد الوراثة صندوق اقتراع لها - لأن التأويل يتضمن قمعاً داخلياً يعفي الحكومة من استخدامه. ما أريد التأكيد عليه هنا أن التفكير الأسطوري لا يزال حياً ويعمل جاهداً في بناء هرمية المجتمع.

هـ - فضائيون على الأرض

هناك نظرية علمية تبتّأها (أرك فون دانيكن) في كتابه (عربات الآلهة) - الذي صدر في منتصف القرن العشرين - تشير الى أن كائنات فضائية قامت بزيارة الأرض في الماضي البعيد، وأن إشارات ورسائل من الحضارات البشرية القديمة قد وصلت إلينا، تجعل الشارحين لها يعتقدون بوجود مركبات فضائية أو شيء من ذلك، وأن بعض البشر قد ركب إحداها وصعد الى أعالي بعيدة، كما في رؤية كلكامش للأرض من السماء، وكيف يتبدّل شكل اليابسة وشكل البحر، التي تشير الى رؤية تمت من مركبة تبتعد عن الأرض.

لا تزال النظرية قائمة، ولا يزال هناك من يروّج لها، ليس إعلامياً فقط، بل تنقيباً وتنظيراً، ليس آخرها حتماً ما كتبه (زكريا سيتشين Zecharia Sitchin) - وهو متخصص في قراءة السومريات - في سلسلة كتبه التي إعتد فيها على قراءة بعض الأساطير السومرية كاسطورة الخلق، والتي حاول من خلالها إثبات وجود كوكب عاشر في المجموعة الشمسية، حدث ذلك قبل أن يتم الإعلان عن العثور على الكوكب (X) فعلاً، وهو يقول بأن الآلهة السومرية هي كائنات فضائية خلقت الإنسان على صورتها، خلقتها ليقوم بأعمال التنقيب عن الذهب، وأنهم قادمون مرة أخرى، بل أن قدومهم يحدث كل (٣٦٠٠ سنة) وهذا يعني أنهم على حافة القدوم الآن، لأن الكوكب العاشر الذي يعيشون عليه يتقدّم



باتّجاه الأرض (أنظر Interview with Zecharia)، ليس زكريا سيتشين وحده من يقول بهذا، فشمة منقبون آثاريون يحاولون عبر إكتشافات أثرية هنا وهناك إضافة قرائن جديدة لإثبات النظرية، كان آخرها المنطقة الأثرية التي تمّ العثور عليها قرب ميناء مابوتو في جنوب أفريقيا، والتي تمّ تحديد عمرها بحوالي (١٦٠-٢٠٠) ألف سنة قبل الميلاد (uncensored: 41).

ولستُ هنا بصدد مناقشة هذه النظرية، فهي لا تختلف عن الرّؤى الدينية التي تجعل العالم مُتفاداً لنصوصها، غير أنّ القول بها كأحد احتمالات نشوء المعرفة على الأرض، يمنحني القدرة على قراءة نصّ التزاوج السومري بين الأرض والسماء باعتباره يشير الى العلاقة العضوية بين الأرض والعالم الخارجي، وكما قلت فإنّ هناك العديد ممّن يعتقدون بأنّ الإنسان هو نتاج الأنوناكي كما في الأسطورة البابلية، وأنّ الأنوناكي أقوام يعيشون الآن على سطح المريخ (uncensored: 50)، وعلى سطح الكوكب العاشر أيضاً، ويمكن بسهولة أن نفهم إصرار الأديان التوحيدية على دور السماء، وإصرارها على آلية الوحي التي هي في النهاية مخاض آخر للعلاقة البشرية مع العالم الخارجي.

ومنذ أن بلغ وعي الانسان من النضج والاختلاف بحيث بدأ يبحث عن إله تجريدي خارج إطار النُصبِ والتماثيل، فإنّه لم يتوقّف عند تصوّر واحدٍ لهذا الإله، بل راح يتفنّن في صياغته أيضاً، لذا نرى إلهاً واحداً بصور وتمثيلات كثيرة، فالله مثلاً، نراه مجرّداً مرّة، ومع هذا يمكن أن يُرى باعتباره موجوداً - وكلّ موجود مرئي - حسب تأويل الأشعري (الإبانة عن أصول الديانة : ٢٦)، وهو موجود في كلّ مكان، أو هو موجود في مكان معيّن كالسماء مثلاً بحسب تأويل ابن حنبل (الرد على الجهمية : ٣٦)، وهكذا، كان (الله) دائماً يأخذ شكل التصرّوات التي يطرحها عليه المؤمنون به.

ولم يقتصر التغيير على شكل الإله وهيبته فحسب، بل إمتد ليشمل وعيه أيضاً، فالبعض قال إنه يعلم الكلّيات دون الجزئيات (إبن سينا نموذجاً)، وقال البعض الآخر أنه يعلم الجزئيات أيضاً (الغزالي نموذجاً)، أي أنّ علمه يحدث، وآنه مستمر بالحدوث.

أريد القول هنا أنّ كلّ محاولة في الإضافة، أو في الحذف، ستنتج إلهاً آخر يختلف عمّن كان قبله، أو عمّن سيأتي بعده، من هنا فإنّ الله كما تمّ حتى لحظة موت محمد بن عبد الله هو إله يختلف تماماً عمّن نعرف من تمثلاته في كلّ المدارس والفرق الاسلامية لاحقاً، وما يفعله السلفيون الآن هو الرجوع الى الله كما هو في لحظة محمد بن عبد الله، وهذا بحدّ ذاته يجعلهم خارج حركة التاريخ، لأنّ الإنسان في النهاية هو نتاج خبرة حياتية متراكمة، وحياته تتلخّص بالنموذج الذي يطرحه لنفسه كإله، وأنّ هذا النموذج يجب أن يكون قابلاً للتطور أيضاً، بل يجب عليه أن يواكب نمو الوضع الاجتماعي للمؤمنين به، أي عليه أن يواكب الإحتياج الجمعي، لأنّ أيّ توقّف هنا سيقود الى خلخلة في العلاقة بين الإعتقاد والممارسات اليومية، تكون نتائجها إنفصامات مرضيّة حادّة، تقود في النهاية الى خروج الإله من دائرة الإحتياج، فينتهي كضرورة اجتماعية.

وما حدث مع (الله) حدث مع (يهوه) وحدث أيضاً مع (الإله الإبن) من قبل، ومن بعد، إلا أن ما بقي من كلّ هذه الطروحات هو ما تبنته المؤسسات الدينية، كلّ حسب إعتقادها، ولا أحصر الكلام هنا على دين بعينه، فالتجارب البشرية متشابهة حدّ التطابق، لذا فإنّ فيها من الكاريكاتيرية ما يدفع الى البكاء.

الفصل الثاني:

إله في الأسر

ولأنَّ الإنسان بصفته كائنًا مفكرًا لا يتوقَّف عن التفكير، فإنَّ الآلهة لا تتوقَّف عن التغيُّر والتجدُّد، وكما أنَّ الانسان يمرُّ بفترات نكوص وانكسار فإنَّ آلهته تمرُّ بذات النكوص وذات الإنكسار أيضا.

وقديماً كانت الآلهة تذهب الى الحرب مع المؤمنين بها، تقاتل معهم أو تقف الى جانبهم، وقد استمر هذا الاعتقاد حتى مع الأديان التوحيدية، فقد روت التوراة كيف أنَّ إله موسى وقف معه لحظة الخروج من مصر حين شقَّ البحر لبني إسرائيل، ومن ثمَّ أطبقه على فرعون وجنوده.

وقد ورد في كتب السيرة والحديث الاسلامية كيف زوَّد (الله) المسلمين يوم بدر بجنود من الملائكة تقاتل معهم (ابن هشام: ٢ / ٢٨٦)، وكيف أنَّ قريش جلبت معها إلهها (هُبَل) يوم أحد، وكان أبو سفيان يصيح بعد انكسار المسلمين «أنعمت فعال، إنَّ الحرب سجال، يوم بيوم، أغلُّ هُبَل» (ابن هشام: ٣ / ٩٩).

أ - حظوظ الآلهة

بالتأكيد ستكون محظوظة تلك الآلهة التي يؤمن بها شعب قوي ومنظم ويمتلك قيادات تمتلك رؤى يمكن أن تتنوع زمانا ومكانا، لأنها في النهاية



ستجعل الإله يتسع أيضا في الزمان والمكان.

ومثل التابعين لها، والمؤمنين بها، فقد تقع الآلهة في الأسر، وقد تقضي فترات طويلة من حياتها في سجون أعدائها، تعاني الذلّ والتهميش على أيادي أتباع الآلهة المنتصرة، وبالمقابل سيكون هناك نواخّ طويل في المدن على غيابها، يمكننا أن نتحدّس ذلك في نصّ شعري سومري كُتِبَ قبل أكثر من (٤٨٠٠ سنة) عبّر فيه الشاعر عن الفقدان الذي أحسّه إثر وقوع آلهة (لكش) في الأسر:

«وا أسفاه! إنّ نفسي لتدوب حسرة على مدينتي جرسو «لكش» وعلى الكنوز

إنّ الأطفال في جرسو المقدّسة لفي بؤس شديد

لقد استقرّ «الغازي» في الضريح الأفخم

وجاء بالملكة المعظمة من معبدها

أي سيدة مدينتي المقفرة الموحشة متى تعودين؟»

وبالتأكيد فإنّ قضية الأسر لم تكن تقتصر على الآلهة الضعيفة، أو الآلهة الثانوية، لأنّ قوّة ومكانة الإله في النهاية هي قوّة ومكانة الشعب الذي يؤمن به، وفي العادة فإنّ تاريخ قوّة أيّ شعب متعلّقة بالنظام الاجتماعي الذي يُسيّره، وبالتالي فإنّ قوّة وحضور الإله - أيّ إله - تعتمد على قوّة وحضور النظام الاجتماعي الذي يمثّله، وأيّ تغيير اجتماعي يطرأ على قوّة الشعب فإنّ هذا التغيير يصيب مباشرة صورة الإله أيضا، من هنا وقعت الآلهة عشتار في الأسر على يد العيلاميين والعموريين، وقد كتب شعراء (أور) قصائد على لسانها في الأسر، تندب حظّها السيء، وتكشف بوضوح كيف أنّ مفهوم ألوهية وقداسة أيّ إله محصورتان فقط على الشعب المؤمن به، وأنّ الإله - أيّ إله - خارج



دائرة شعبه يتجرّد من قداسه ومن ألوهيته هذه، فلو صادف أن دخلت بقرة هندوسية حقلاً غير هندوسي فإنّها ستفقد قدسيّتها حتماً، يقول نصّ كُتِبَ قبل حوالي ٤٠٠٠ سنة على لسان الآلهة عشّار:

«لقد إنتهك العدو حرمتي بيديه النجستين؛
إنتهكت يداه حرمتي وقضى عليّ من شلّة الفزع .
آه، ما أتعس حظي!
إنّ هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الإحترام،
بل جردني من ثيابي وألبسها زوجه هو،
وإنزع مني خُلعي وزن بها أخته،
وأنا «الآن» أسيرة في قصوره - فقد أخذ يبحث عني
في ضريحي . - واحسرناء
لقد كنت أرنجف من هول اليوم الذي خرج فيه،
فقد أخذ يطاردني في
هيكلي،
وقذف الرعب في قلبي،
هناك بين جدران بيتي؛
وكنت كالحمّامة ترفرف
ثم تحط
على رافدة،
أو كالبومة الصغيرة إختبأت في كهف،
وأخذ

يطاردني في ضربي كما يطارد الطير،
طاردي من مديتي كما يطارد الطير
وأنا

المحسر وأنادي

إنّ هيكلي من خلفي، ما أبعد المسافة بينه وبينني

هذا النصّ يمكن أن يكون مفتاحاً مهماً في قراءة سكوت أيّ فرد حين يسمع
إنتقاداً لآلهة لا تخصّه، لأنّها - من وجهة نظره - تخلو من القداسة التي يحملها
إلهه الخاص، بل إنّه يساهم قدر الإمكان في إذلال آلهة الغير، يحاول تجريدها
من كلّ شيء، دون أن يشعر بذنب، فإذا ما أحسّ أنّ الإنتقاد بدأ يطال إلهه
الشخصي نراه يُفصّح عن مخالفه وأنيابه إستعداداً للدفاع، وبالتأكيد فإنّ هذه
الممارسة متوقّرة أيضاً في الصراع الاجتماعي اليومي بين العقل العلمي والعقل
الخرافي، وكلا الطرفين يشعران بالسكينة في حال توجيه النقد الى الطرف
الآخر، إنّه شعور فطري غريزي، بل إنّ الفرد الذي يطالب بالنقد الذاتي،
سيتألم حقاً حين تتوجّه إليه سهام النقد، وقد إستخدمتُ كلمة (سهام) وهي
كلمة دارجة في الحوارات، لأنّها تشير ضمناً الى فهمنا العتيق لعملية النقد لا
باعتباره نقداً بقاءً، بل باعتباره إنتقاصاً من الشأن الشخصي.

أعود الى النصّ مرّة أخرى، فلو ركّزنا الإنتباه على الجملة الأخيرة
لاكتشفنا بوضوح إصابة الآلهة أيضاً بمرض الحنين الى الوطن (home sick)
في حالة إبتعادها قسراً، يمكن تحسّس ذلك من بعد المسافة بين مكان قيمة
الإله وبين مكان تجرّده من هذه القيمة، وبعد المسافة الحقيقي - من وجهة
نظري - هو الإقامة بين أناس لا يقيمون إعتباراً لقيمته، رغم أنّ النصّ يتحدّث
عن البعد المكاني أيضاً، فالهيكلي بيت الإلهة خالياً، فغربة الإله هنا هي في
إقامته بين أناس لا يرونه إلهاً.

وببدو أنّ طقوس القرايين تتوقّف حتى عند المؤمنين به الى حين عودته من الأسر، وهذا يذكّرنا بأزمة العباسيين مع القرامطة، حين أخذ أبو طاهر الجنابي الحجر الأسود أسيراً الى منطقة الإحساء لأكثر من عشرين عاما (٣١٧ - ٣٣٩ هـ)، وكيف توقّف الحجّ لبعض الأعوام خلال تلك الفترة، (القرامطة: ١١٠)، وعاد كلّ شيء الى طبيعته بعد عودة الحجر الأسود من الأسر.

ب - أبي وصدمة المقدّس

ومن الطبيعي، حين يتعرّض المقدّس لما يمكن أن يُحدّث شرخاً في قداسه، فإنّ بعض المعتقدين بها سوف يتخلّلهم الشكّ بشكل نهائي، أو الى حين.

ويمكنني هنا أن آتخذ من تجربة أبي (علي الحلاق) الشيعي الإثني عشري نموذجاً لتخلخل الثقة بالمقدّس في الأزمات الاجتماعية الكبرى، فبعد أن قصفت مدفعية الحرس الجمهوري العراقي بأمر من (حسين كامل) قبة أو مرقد الإمام الحسين في مدينة كربلاء عام (١٩٩١) - وهو الإمام الثالث حسب التسلسل عند الشيعة الإثني عشرية، وحفيد محمد بن عبد الله من إبنته فاطمة - توقّف أبي الشيعي الملتزم عن زيارته، يومها أحسّ بخيبة المهزوم، وكان يتنظر أن يبادر الإمام الحسين بالردّ على من أهان ضريحه، حتى أنّه قرّر ألا يقوم بزيارة كربلاء حتى يأخذ الحسين بثأره.

كان أبي يرى أنّ الشيعة قدّمت الكثير من القتلى في الإنتفاضة الشعبية التي تلت حرب الكويت مباشرة، وكان واضحاً جداً أنّ الأمريكان يومها لم يكونوا جادّين في عملية تغيير صدام حسين على الأقل، فمنحوه الضوء الأخضر باستخدام القوة الجوية التي تمّ إحصاؤها أثناء الحرب، وهكذا تمّ القضاء على أوسع إنتفاضة عراقية خلال العهد الجمهوري سقطت فيها أربعة عشر محافظة

من ثمانية عشر بيد المنتفضين الذين لم تكن لهم قيادة مركزية، ولربما تشكلت لجان محلية هنا وهناك، إلا أنها في النهاية كانت بدون قوة عسكرية وبدون قوة إقتصادية داعمة، وكان الإعلام الشفاهي التهويلي هو نافذة إنتشارها السريع وكمونها السريع أيضاً، وبالتأكيد فإنّ القضاء على الإنتفاضة كان قاسياً ومؤلماً راح ضحيته أعداد هائلة من البشر، ولم تقتصر الحكومة على القتل والتخريب، بل تعدّت ذلك كثيراً، فنكابةً بالمنتفضين - الذين لا ذوا بالأماكن المقدسة من هول ردة فعل الحكومة - أخذت مدفعية الحرس الجمهوري تقصف مرقدي الحسين والعباس على من إستجار بهما.

إستمر أبي على قراره فترة من الزمن حقاً، كان يعتقد أنّ المقدس يمتلك من السلطة بحيث يمكن أن يساهم في عملية تغيير الوضع، وبالتأكيد لم يكن أبي لحظتها يفكر بالسلطة الأرضية، فقد إنهزم الشعب أمام جيروت القتل والتدمير، كان أبي ينتظر من السلطة الماورائية للمقدس أن تبادر بعملية التغيير، إلا أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، لأنّ الآلهة في النهاية لا تقوم بغير ما يقوم به المؤمنون بها، لقد كان فيتاغورس حكيماً بقوله: «لا تطلب من الآلهة ما لا تستطيع أن تقوم به بنفسك»، وحتى لا يدخل الربّ في أزمة مع العبد قال المسيح: «لا تجرّب الربّ إلهك»، غير أنّ أبي طلب أكثر من إستطاعته، وجرّب المقدس فخذله المقدس، فانطوى على خيئته، وعلى قراره أيضاً.

ثمّ حدثت المفاجأة الكبرى حين هرب (حسين كامل) من العراق عام (١٩٩٥)، ومن ثمّ عودته الدراماتيكية إليه، لتتم تصفيته على يد أبناء عشيرته بأمر من (صدام حسين).

إعتبر أبي - بل الشيعة بأكملها - أنّ ذلك كان إنتقاماً لما فعل بالعتبات المقدسة، وأنّ الحسين قد أخذ، أو قد أخذ بثأره، وبهذا استعاد أبي علاقته بكريلاء وبأضرحتها.

لقد كان موت (حسين كامل) بمثابة النافذة لإستعادة الثقة بالمقدّس بالنسبة لأبي.

ج - نماذج أخرى لآلهة في الأسر

الشعوب المتحاربة تجعل آلهتها عرضة للأسر أكثر من غيرها، فقد ورد في أخبار الإله «مردوخ» إله بابل الشهير مثلاً، أنّه وقع في الأسر لمرّات عديدة، وأنّ بابل كان تشنّ الحملات الحربية من أجل إسترجاع تمثال إلهها الأسير (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٣٦٨ - ٣٦٩). ومع سقوط بابل على يد كورش سنة (٥٣٩ ق م) توقّف الإله مردوخ عن أن يكون إلهاً رئيساً، وتدرجياً اختفى طيفه ضمن صعود الإله يهوه والإله أهورا مزدا.

وهناك قصّة أخرى ذكرها الدكتور جواد علي تتلخّص بذهاب (خزا ايلي) ملك القيداريين - وهم فئة من الأعراب تقول كتب الأنساب أنّهم يعودون الى قيثار بن اسماعيل بن ابراهيم - الى نينوى لمقابلة (أسرحدون) ملك آشور ومعه هدايا كثيرة وثمانية في محاولة منه في عقد صلح واسترجاع الآلهة الأسيرة «السيئة الحظ، التي كان عليها أن تشارك أتباعها الحياة الأرضية المزعجة» (المفصل: ١ / ٤٦٦)، وهكذا تمّ إطلاق سراح الآلهة: (عشتر السماء) و(دبلات) و(دايا) و(نوهيا)، وآلهة أخرى، غير أنّ الآلهة بسبب إقامتها في سجون أعدائها كانت قد أصيبت ببعض الأضرار والتلف، فمّن الملك (أسرحدون) عليها بالأمر بإصلاح ما أصابها وإعادتها على ما كانت عليه، «ثمّ تلطف فأمر بإرجاعها الى (خزا ايلي)، بعد أن نُقِشت عليها كتابة تفيد تفوّق إله آشور عليها، وبعد أن نُقِشَ عليها اسم الملك» (المفصل: ١ / ٤٦٦).

فالآلهة تظلّ أسيرة الى أن يتمكّن المؤمنون بها من إطلاق سراحها بالقوّة، أو بالهدنة والمصالحة، لكن بعد أن يوصم الإله الأسير بوشم الإله الأسر، وبوشم الملك خادم الإله المنتصر أيضاً.

د - علاقة الأسر بتغيير لسان الإله

لم يحدث أن خاطب إله شعبه بغير لغتهم، من هنا كانت لغة الآلهة هي لغة شعوبها، فإذا صادف أن وقع شعب ما أسير لغة أخرى فإن لغة الإله ستتغير مع الجيل الثاني، أو الجيل الثالث نتيجة لتغير لسان المؤمنين به، وهذا ما حدث مع الإله (يهوه) إله بني إسرائيل.

عندما كان اليهود في فلسطين كانت اللغة العبرية هي لسان الشعب، وبالتالي كانت اللغة العبرية لسان يهوه أيضا، فلما وقع اليهود أسرى نبوخذنصر، وطالت إقامتهم في بابل لأكثر من جيلين، تم إخضاع الشباب منهم تحديداً لنظام تعليمي صارم، تحول لسانهم عبره تدريجياً من اللغة العبرية الى اللغة الآرامية التي كانت هي اللغة المحكية في بابل يومذاك، ونتيجة لذلك فقد تحول لسان الإله يهوه من العبرية الى الآرامية، لذا نجد أن أسفار التوراة التي كُتبت في فترة ما قبل الأسر جاءت باللغة العبرية بينما جاءت الأسفار التي تم إنتاجها بعد الأسر ممزوجة باللغة الآرامية، سفر عزرا وسفر دانيال نموذجاً (نبوءة دانيال: ٢٦)، وهكذا بقي الإله ذاته لكن بلسان ولغة أخرى، وتغير لسان الرب جاء نتيجة لتغير لسان شعبه، ليس هذا فقط، بل أن اليهود المقيمون في بابل، وبفعل شيوع اللغة الآرامية بينهم أحسوا بتنامي فجوة في الإتصال مع نتاج يهوه العبري، ولتلافي هذه الفجوة تحتم ترجمة الأسفار العبرية الأولى الى الآرامية (كل الكتاب: ٣٠٧).

ه - التضييق شكل من أشكال الأسر

ولأن صورة الإله الاجتماعية تعكس صورة الحالة الاجتماعية للمؤمنين به، فإن ما يحدث من تضييق على صور الآلهة التجريدية، الله مثلاً، لا يبتعد كثيراً عن صورة الإله في الأسر قديماً، وعملية التضييق هذه تُصعد الإحساس بفقدان

العدالة الاجتماعية على الأرض، وبالتالي - ونتيجة لعدم تدخّل الإله أرضياً - تفتح باب الآخرة على مصراعيه، فتكون الآخرة هي الحل للأزمات الاجتماعية، والكارثة هنا، أنّ هذا الحل الافتراضي يجب أن يتعامل معه - المُعتدّ به - كيقين خالص لتحقيق العدالة الاجتماعية بتدخّل إلهي .

ولذا فكلّ إله يقع تحت التضييق الإجرائي يكون بحاجة الى إطلاق سراحه اجتماعياً من أسر العقليات الضيقة التي تعمل على تحجيمه في قوالب جدّ ضيقة على صعيد الممارسة الاجتماعية .

وأنا هنا - في كتابي هذا - لا أحاول إطلاق سراح إله ما من أسره، فهو أمر لا يعنيني، ولا أجد في نفسي الرغبة على إطلاق سراح أيّ إله، لكنني أحاول تركيز الإنتباه على كيفية وقوع إله ما في الأسر، وكيفية تماهي صورته تدريجياً مع صورة الإله الأسر، بعد أن يعجز أتباعه عن إطلاق سراحه، بل كيف يبدأ أتباع الإله المنتصر بإدراج التاريخ الشخصي للإله المأسور باعتباره جزءاً لا يتجزأ من تاريخ إلههم، فيُمحى وجود الإله المأسور، ويتحوّل اسمه الدال عليه الى اسم من أسماء الإله المنتصر .

وبالتأكيد لن يكون حديثي تجريدياً، على العكس تماماً سأتحذّث عن الصراعات الاجتماعية - سواء أكانت معنوية أو مادية - للأطراف المؤمنة بها، أي ستكون الحقائق التاريخية هي الأرضية لمدار البحث .

الفصل الثالث:

إله دائم التجدد

وعى الفرد هو إلهه الشخصي، وما تفعله الحكومات منذ نشوء المدن الأولى يكمن في جعل الإله الشخصي متأقلماً من إله الجماعة، أي بصورة أكثر حداثة جعل وعى الفرد متأقلماً مع الدستور.

يمكنني القول بأنّ الدستور في المجتمعات المدنيّة الحديثة هو إلهها الجديد المتجدّد، فكلّ إضافة على الدستور هي إعادة في صياغة الإله المدني، وهو إله يتقاطع اجتماعياً مع أشكال الآلهة القديمة، من خلال فتح نافذة حقوق الإنسان التي تقوم على مبدأ تعطيل (الحدود) - وفق الصياغة الدينية لها - منذ أواخر القرن الثامن عشر، بعد أن تمّ اعتبارها خزيّاً يتقاسمه الجلاد والمحكوم (المراقبة والمعاقبة: ٥٢)، وبالتأكيد فإنّ القانون المدني لا يلغي العقوبة، لكنّه يلغي التشهير بها (كالجلد والقتل في الساحات العامة أمام مرأى ومسمع الناس)، كما إنّه لا يمنح الحق في تشويه جسد الإنسان المرتكب للذنب، أي تعطيل مبدأ «العين بالعين والسنّ بالسنّ»، لكنّه بالمقابل يضع عقاباً مكافئاً للمجرّم يُحافظ فيه على كرامة الإنسان، لم تعد عملية قطع اليد مثلاً عقاباً للسرقة.



إعلان حق المساواة بين الجنسين، فللمرأة مثل حقوق الرجل، وفتح باب فرص العمل أمام الجميع بالتساوي وجعل الكفاءة هي المقياس في التفاضل.

إضافة الى إعادة صياغة هندسة الجنس حديثاً بإقرار الزوجات المثلية في أماكن عديدة من العالم، سواء أكانت هذه الزوجات ذكورية أم أنثوية (لقد حضرتُ إحدى مسيرات المثليين في سيدني، أعداد غفيرة، بالآلاف، كنت أراقب إعتراضهم ضد النظرة الدونية التي يواجهونها من قِبَل مَنْ يعتقدوا أنهم أسوأ، كان الإعتراض سلمياً وإنسانياً، كتبوا على إحدى لافتاتهم: «نحن مسيحيون أيضاً أيها السيد المسيح»، وهذه المسيرة طقس سنوي يقوم به المثليون في أرجاء عديدة من العالم إبتدأ على يد الأمريكي (هارفي ملّك) في سان فرانسيسكو عام (١٩٧٨) بعد أن رفع شعاراً يقول: «لسنا مرضى، ولسنا مخطئين»، وكان بين الشعارات التي رفعها المتظاهرون في سيدني شعاراً يقول «الجبن والخوف يخلقان مجتمعاً قديماً»، ليس هذا فقط، بل وتفاصيل أخرى كثيرة، تجعل الإنسان المدني يخلق إلهه على صورته بعد أن كانت الآلهة القديمة تخلق الإنسان على صورتها، الإله الجديد ينمو معرفياً كما ينمو الإنسان، ويشيخ معرفياً كما تشيخ بعض الممارسات الاجتماعية للإنسان أيضاً.

والإضافة التي تستحق الإنحناء لها هي قدرة الانسان الحديث على إزالة التجاعيد عن وجه إلهه، فالتعديلات المتواصلة على ثيمات الدستور المدني ما هي إلا عمليات تجميلية تجعل الإله المدني في النهاية أكثر شباباً وحيوية، وأكثر تجدداً واستيعاباً للظاهرة البشرية النامية.

أريد القول هنا أنّ المجتمع المدني هو نتاج خبرة بشرية في حقل التعامل الإنساني تراكم خارج نطاق وصايا الدين وشرائعه، وعليه فالمجتمعات الدينية بحاجة الى تراكم حياتي - وليس قراءة فقط - في حقل حقوق الإنسان خارج

نطاق الدين لكي تتحوّل الى مجتمعات مدنية، وأعتقد أنّ فقدان هذا الممارسات المدنية في الشارع هو الذي يخلق الانفصامات الفردية أو المجتمعية التي نراها هنا وهناك على الأرض، مثل شخصية (الملحد الطائفي) التي تحدّث عنها الدكتور علي الوردي (شخصية الفرد العراقي : ٤٦)، والقضية لا تنحسر على فرد أو مجتمع معينين، ولكنها قد تبدو واضحة مع فرد أو مجتمع بعينهما أكثر من سواهما.

لقد كان الإنسان ولا يزال يعيش داخل رؤيته للإله، وحين تشيخ بعض الممارسات الاجتماعية يستوجب على الإنسان إعادة صياغة وضعه الاجتماعي، بحيث يتلائم مع لحظته التاريخية ضمن المجموع العام، وهذا يعني إعادة صياغة إلهه - أي كما قلت قبل قليل - إجراء عمليات تجميلية تتدارك أيّ انفصام قد يطرأ بين سلوك الانسان وبين اعتقاده الشخصي، أي أنّ التغيير يبدأ بالإنسان كفرد وكجماعة، ثم تتغيّر الرؤية والرؤيا تدريجياً.

الآلهة تأخذ - الآن وبوضوح صارخ - شكل ووعي متجيهها، وهذا جزء من ثعلبيتها، بحيث تبقى دائرة الإله مفتوحة، وقابلة للتطور والإتساع على الدوام. ينبغي أن ينمو مفهوم الإله، ليس كورم، لكن ضمن آليات النشوء والإرتقاء. بدأت بعض الكنائس تستقبل زواج المثليين، وهذا يعني أنّ فهماً جديداً وسّع من دائرة الإله، وبفضل هذا الفهم، وبفضل هذا التوسّع بدأ الإله الجديد ذاته يستوعب (المثلية) بإعتبارها ليست خرقاً أخلاقياً.

وبالتأكيد فإنّ هذه الإنتقالة الجذرية في فهم الحالة كوضع صحي، وليس وضعاً مرضياً، أو شذوذاً عن صواب، ستأخذ من الوقت ما يحتاجه الوعي التقليدي كخبرة اجتماعية كي يتعامل معها وفق رؤية أكثر إنسانية.

وحتى يكون حديثي عن ولادة الآلهة وتطورها أكثر وضوحاً، أحبّ أن أتمثّل

هنا بصورة إلهين جديدين مختلفين عن بعضهما البعض ، هما نتاج معرفة بشرية جديدة تحاول أن تتجاوز نفسها الآن ، وسيرى القارئ أنني أتحدث هنا عن إلهين - ولا أقول تصوّرين ، رغم أنّ الإله في النهاية هو تصوّرنا عنه - إلهين ولدا نتاج تجربتين حياتيتين فرديتين إلتصقتا أو تماهيتا مع فلسفة العلم ، وتماهيتا مع التجربة الذاتية لكلّ منهما ، أما إحداهما فقد مات صاحبها - آنشتاين - عام ١٩٥٥ ، وأما الأخرى فلا يزال صاحبها - ستيفن هاوكنغ - حيّا حتى كتابة هذه الأسطر .

الفصل الرابع:

إله أنشتاين Einstein's god

القول بإله أنشتاين يشبه تماماً القول بإله إبراهيم، إله زرادشت، إله إفلاطون، أو إله أرسطو، ووالخ. ما أريد قوله هنا أنّ ولادة الإله تبدأ مع فرد، وأنها كتجربة إنسانية يمكن أن تنتشر فتصبح ديناً لشعب أو أمة، وقد تنحسر تجربة ولادة الإله على الفرد ذاته، أو على حلقة معينة من الأفراد الذين يمتلكون أو يقتربون من نفس التجربة الحياتية، فالإله يبدأ بواسطة هذا الفرد وقد ينتهي معه أيضاً.

أ - مدخل أولي

«إنّ الإنسان الذي يجد متعته في الإصطفاف في الطابور والمشي على إيقاع الموسيقى العسكرية حرّياً بالازدراء والإحتقار؛ يبدو أنّه حصل على هبة العقل بطريق الخطأ، فكلّ ما يحتاج إليه هو العمود الفقري» (العالم كما أراه: أنشتاين).

للموسيقى العسكرية مستويات دلالية عديدة، يمكن تحسّسها في الطقوس الدينية، في الواجبات الحزبية، وفي الكثير من التفاصيل اليومية، على سبيل الممارسة والإعتقاد، في كلّ ما يدعو إلى الرتابة والنمطية، وقد تكون الحياة في



لحظة ما ضرباً من العسكرية على حدّ تعبير (سينيكا)، فالتكرارية جناز لا تحلم بالولادة، طابور طويل لكائنات شبحية منومة، تردّد أصوات عجماء تظنّها كلمات ذات معنى .

للتحدّث عن إله أنشتاين ينبغي الوقوف بعيداً عن التكرارية الفجّة للخلق، سيكون للفردانية حضورها الراكز، بل أنّ الشعور بالوحدة العميقة سيكون نافذة للتوحد مع الكون، الإنتماء الأبعد للإنسان الحق .

«أنا لست ملحداً، أنا متديّن، غير مؤمن»، بهذا القول يعلن أنشتاين إنفصاله عن كلّ إنتماء ديني تقليدي، وهو قول - على قصره - مكثّف وبه إختزال شديد، يمكن إيضاحه، أنّ أنشتاين لا يزال يمتلك هذا الحسّ البشري، أي حسّ النزوع الى إله، وبهذا النزوع فهو متديّن، أما قوله غير مؤمن، فهو يرمي بكلّ الإعتقادات التقليدية بعيداً عن سلّة عقله ووعيه، ورغم كونه ينحدر من أصول يهودية، فإنّه ليس يهودياً، وأنّ إلهه ليس (يهوه)، ولا يمتّ بحبل سريّ معه .

ب - إله كوني

سيقف الكثيرون هنا ليعترضوا بأنّ آلهة الأديان التوحيدية القديمة هي آلهة كونية أيضاً، لكنني، أحبّد أن يكون الطرح أكثر هدوءاً وأكثر عقلانية، لذا أقول: في الأديان القديمة كانت علاقة الإنسان بالكون علاقة هامشية، لذا كانت الأديان أرضية بحتة، أي أنّها دارت في نطاق الأخلاق والعلاقات الإجتماعية وهو ما يطلق عليه أنشتاين نفسه بالأديان الأخلاقية، تمّ إهمال الجانب الكوني، أما وقد فتح الكون بمساحاته الهائلة أبوابه أمام علماء الفلك والفيزياء فإنّ علاقة الإنسان بالكون قد أخذت إتجاهاً وشكلاً آخرين، حتّم في النهاية أن يتم عزل الدين الأخلاقي عن الدين العلمي، أي أصبح الدين الأخلاقي مرحلة بدائية إزاء المعرفة العلمية المتنامية .



فالكون ليس شمساً وقمرأ وحفنة من النجوم منثورة على الطريق اللبني، إنّه مجرّاتٌ بأعداد كبيرة، كلّ مجرّة تحوي على كمّ من النجوم يفوق قدرة الإنسان على التخيل، وبين كلّ مجرّة وأخرى مسافات لا يمكن إستيعابها رغم أنّ العلماء بدأوا بقياسها فعلاً باستخدام سرعة الضوء التي تبلغ (٣٠٠٠٠٠ كم/ ثانية)، لكنّها أعداد مجرّدة لم يتعوّدها الإنسان من قبل.

وليس هذا فحسب، فما تراه العين البشرية ليس إلا الضوء، أما السواد الذي لا نراه إلا سواداً فإنّه لا يعني فراغاً، فثمة غازات وغيوم وغبار كوني غير مشعّة تملأ الفضاء الخارجي.

وهناك أيضاً الثقوب السوداء، وهي نقطة حاسمة في تاريخ علم الفلك والفيزياء، فهي وليد جديد في حقل الفيزياء، أكثر حداثة من المجرّات، وأكثر حداثة من سرعة الضوء أيضاً.

أريد أن أقول أنّ الكون إنّسج بشكل هائل، وتغيّر شكله تماماً عن ما كان يُعرف سابقاً، تغيّرت صورته، نحن الآن نقيم في كون لم يكن معروفاً من قبل، كون آخر، كون يفرض علينا إعادة قراءة علاقتنا به، لم يعد الإنسان مركزاً مستخراً له كلّ شيء، فالأرض ذرّة أو هباء في سعة تمتد.

لذا حين نريد أن نفهم إله أنشتاين فعلينا أن نقيم هناك في الكون وليس على الأرض، وأن نحاول قدر الإمكان أن نتعلم قراءة القوانين الفيزيائية الحديثة، لأنّ قراءتها تشبه قراءة عقل الإله على حدّ تعبير أنشتاين نفسه (Discover: p33). إله أنشتاين ليس أرضيّاً، ولا يمكن الإقتراب منه دون معرفة آخر النتائج العلمية، لأنّه ليس نتاج ثقافة شفاهية أيضاً.

من المدهش حقاً، أنّ أنشتاين كان يجعل الجمال والبساطة والقدرة على احتواء المشاكل أهم سمات النظرية العلمية، حتى أنّه كان يتحدّث في



محاضراته عن الكون بسهولة عالية، يطرح أفكاره بطريقة حسّية بعيدة عن التجريد، رغم أنّه لا يخطو خطوة دون أن يتّكّيء على استخدام الرياضيات العالية، وكان يعتقد أنّ قوانين الفيزياء النسبية قادرة على تفسير كلّ حركة في الكون، من هنا كان إلهه قادراً على تنظيم كلّ شيء، وقادراً أيضاً على فهم كلّ شيء بطريقة جميلة وسهلة.

ج - الإله صديق ذكي

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ إله آنشتاين لا يتقاطع مع الآلهة التي (تعرف كلّ شيء)، إلا أنّ الإضافة التي تحقّقت مع الإله الجديد تكمن في كيفية الفهم والطريقة التي كان يتعامل بها آنشتاين مع إلهه الخاص، لقد إنتهت العلاقة القائمة على أساس المعادلة القديمة (الرّبّ والعبد)، الإله الجديد (صديق ذكي)، وأنّ المطلوب من آنشتاين هو كيف يتمكّن من طرح أسئلة ذكية على هذا الصديق الذكي، أي كيف يقيم حواراً عميقاً وذكياً؟

لقد إنتهى زمن الفهم البدائي الذي تحدّده الجملة الإتكالية: (الإله خلق كلّ شيء)، المطلوب الآن، بتحقيق الصداقة، (كيف خلق الإله كلّ شيء؟ ولماذا؟)، أي أنّ المطلوب هو البحث في القوانين العقلانية التي تسيّر الكون، ذاك أنّ الوصول الى الإله الجديد يتطلّب تجارب حياتية عميقة (لقد تجاوز الإنسان زمنياً ومعرفياً موضوعة الفطرة التي قامت عليها الأديان التقليدية)، المطلوب الآن هو أن يكون وجود الفرد - أو الكائن الإنساني - ضرورة تاريخية، وليس تكراراً سطحياً وساذجاً.

د - التطابق مع عقل الإله

يمكنني القول أنّ الوصول الى (قانون الطاقة) الذي ينصّ على أنّ:

$$(الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء)$$

كان لحظة تطابق بشري مع عقل الإله لحظة (الإنفجار الكبير)، أي أنّ التجربة الكونية إحتاجت الى (١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) خمسة عشر بليون سنة لكي يصل الإنسان الى قانون اللحظة الأولى للمعرفة، وبفعل التراكم الزمني والمعرفي كان آنشتاين هو الإنسان الأول الذي تطابق عبر الوعي مع تلك اللحظة البعيدة جداً، والتي أصبحت نظاماً يحيط بالكون.

رؤية آنشتاين للعالم هي في النهاية رؤيته لإلهه، وهي بالتالي رؤية إلهه أيضاً، وهو يرى أنّ «الخيال أكثر أهمية من المعرفة» (Einstein: 387)، أي أنّه يترك نافذة الخروج على المعرفة مفتوحة، وبذلك فإنّ الإله جاهز أيضاً للدخول أو للإضافة.

قال آنشتاين مرّة على سبيل المزاح: «لو سألني الإله حول كيفية خلق الكون فسوف أدّله على الطريق الأسهل». لكنّه قال في مرّة أخرى: «لو كنتُ أنا الإله لخلقت الكون كما هو الآن»، كما لو أنّنا نعود الى لحظة تساوي الكل، الفوق والتحت، بعد أن أزالنا القوانين النسبية مفهوم الفوق والتحت، الإنسان يرتقي كصديق للإله، يقرأ الكون بنفسه ولا ينتظر وحياً، المعرفة يمكن أن تبدأ على الأرض وتنطلق عميقاً في إكتشاف وتشريح الكون.

• - الإله الفيزيائي بلا مشاكل إجتماعية

وبالتأكيد فإنّ نظرة آنشتاين لإلهه الخاص جداً كانت نتاجاً لمنظار الفيزياء النسبية التي أعادت صياغة هندسة الكون، لذا كان إلهه مترقّعاً عن المشاكل الإجتماعية، بالرغم من غوص آنشتاين فيها، على عكس إله (عمر الخيام) مثلاً، الأمر الذي يجعلنا نرى عند الخيام هذا الإحتجاج الهائل على عدم وجود العدالة الإجتماعية، وأنّه لو كان مكان الإله لجعل الأفلاك تدور وتسير وفق مشيئة العقلاء.

كان الإله حاضرا في كلمات آنشتاين ووعيه، لكنّه حضور سهل ومنتج في نفس الآن، الإله لا يخلق أزمة معرفية، فهو مُفْتَحٌ، لا يضع خطوطاً حمراء، ولا يعاني من انفصامات شخصية يسقطها على المؤمنين به، ذاك أن الفرد هو الذي يخلق أزمة إلهه، وهو الذي يضيف عليه انفصامه، وبصيغة أخرى كان إله آنشتاين يشبه آنشتاين تماما.

الفصل الخامس:

إله ستيفن هاوكنغ (Stephen Hawkings god)

أ - أزمة اليقين إزاء الاحتمال

«قررت الكنيسة دعوة عدد من الخبراء للاستئناس برأيهم حول الكونيات، وفي نهاية المؤتمر، إلتقى المشاركون بالبابا، وقال لنا أنّ الكنيسة لا تعارض دراسة تطوّر الكون بعد الدوي الهائل (الانفجار الكبير)، لكنّها لا ترتأي البحث في الدوي الهائل نفسه لأنّه يمثل لحظة الخلق، وإنّه تبعاً لذلك عمل من أعمال الرب. كنت في حينها مسروراً لأنّه لم يطلّع أحدٌ على الموضوع الذي تحدّثت عنه في المؤتمر وهو احتمال أنّ الزمان - المكان ليس أزلياً ولكنّه بدون حدود، أي لم تكن له بداية، ولا لحظة خلق، ذلك أنّني لا أودّ أن يكون لي مصير مشابه لمصير غاليلو» (موجز تاريخ الزمن: ١٨٠).

هذا الإقتباس يشير الى عمق الفجوة التي بين رجال العلم ورجال الدين، ويكشف أيضاً خوف رجال العلم من سلطة رجال الدين، وخوف رجال الدين من أبحاث رجال العلم. وهو كما نرى خوف متقابل لكنّه ليس ضمن حلبة واحدة، فخوف رجال الدين يتركّز من المعرفة التي تتجاوز نطاق كتبهم وشعائيرهم الدينية، وخوف رجال العلم يتركّز من السلطة التي يمتلكها رجال الدين على الصعيد الاجتماعي.

رجل العلم رائد بشري يدخل منطقة معرفية بكر، فلا يكون مسنوداً إلا بتنتاج تجاربه وبحوثه العلمية، فهو يقف بعموده الفقري إزاء رجل الدين الذي يتصب بالأعمدة الفخرية للمؤمنين به ويدياته كلها.

من هذه الزاوية يمكن معرفة حدود إله البابا وحدود إله ستيفن هاوكينغ على سبيل المثال، يحاول البابا لوي عنق الكون وزجه في زجاجة النص، بينما يتبع هاوكينغ الكون الى أقصاه كي يتمكن من الوصول الى الحقيقة أو ما يقاربها، إله هاوكينغ لا يضع حداً للتساؤل والبحث، على العكس تماماً، هناك حافز يتمثل برغبة هاوكينغ الى معرفة وفهم الكون، لماذا يبدو كما هو، ولماذا هو موجود أصلاً:

"My goal is simple. It is complete understanding of the universe, why it as it is and why it exists as all"

ولأنه يبحث في أصل الكون، فإنه يقف على الحدّ الفاصل بين العلم والدين، لكنّه - وبحسب إعترافه - يحاول أن يقف الى جانب العلم، مع إدراكه أنّ القوانين العلمية لا يمكن أن تعطي تمثيلاً للإله (God, Time & Stephen Hawking: 26).
بجسد معاق وعقل فذ، استطاع ستيفن هاوكينغ أن يهضم أحدث النظريات العلمية في حقل الفيزياء والكون، وأن يقف إزاء الأعمدة الفخرية للقراءات القديمة كلها.

ب - آلهة فيزيائية متقابلة

وإذا ما اعتبرنا الكون نهراً فإنّ إله هاوكينغ يقف بعيداً عن إله آنشتاين، بل يقف على الضفة الأخرى من النهر، إنهما يتصلان بصلة نسبٍ علمي، لكنهما لا يشبه أحدهما الآخر، بل هما مختلفان تماماً، وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف جذري في رؤية كلّ من آنشتاين وهاوكينغ لهندسة ويرمجة الكون، فبينما نرى أنّ إله آنشتاين «لا يلعب النرد مع الكون»، بعد أن أخضع الأخير كلّ

الكون لقوانين النسبية العامة، نرى أنَّ إله هاوكنغ «لا يلعب النرد فقط، بل يرمي النرد أحياناً في أماكن غير مرئية»، بعد أن رأى الأخير «أنَّ قوانين النسبية تنهار داخل الثقب الأسود، حتى أنَّ الضوء لا ينجو من الإنهيار رغم سرعته الهائلة». في منظار آنشتاين فإنَّ نظام الكون يخلو تماماً من مبدأ (الإحتمال)، فلا يمكن - والطرح لآنشتاين - أن يحدث حادث ما لمجرد أن يحدث هكذا خارج نطاق البرمجة الكونية، كإن يفلت إلكترون من مداره بدون سبب ليصطدم بإلكترون آخر، «لم يرض بفكرة أن الكون تتحكَّم فيه الصدفة» (موجز الريخ الزمن: ٩٤).

بينما يمثل (الإحتمال) ركناً أساسياً في منظار هاوكنغ، من هنا دخلت رمية النرد كجزء من نظام الكون، ومبدأ الإحتمال هو اللعب بالنرد.

ج - متاهة الإله الجديد

إضافة الى ذلك فإنَّ نظرية (الانفجار الكبير) التي يُعَوِّل عليها العلماء في قراءة تاريخ الكون، تتحدَّث عن ما جرى من لحظة الانفجار، لكنَّها لا تتحدَّث عن ما حدث قبل ذلك، وفي محاولة للإلتفاف على بداية عشوائية يفترض هاوكنغ طرْحاً آخر يكون فيه «الكون مستقلاً بذاته تماماً، وليس له حدُّ أو حافة، وبذلك لن تكون له بداية أو نهاية، ولن يكون هناك مكانٌ للربِّ» (موجز تاريخ الزمن: ٢١٤)، وكأنَّه بذلك يعود بصورة أو بأخرى الى رفع شعار أرسطو حول أزلية الكون، وحول المحرَّك الذي لا يتحرَّك، التي تبَّناها ابن سينا (تاريخ فلاسفة الاسلام: ٥٩)، غير أنَّ هاوكنغ يفترض أن يكون الكون كما هو دائماً (موجز تاريخ الزمن: ٢٠٨)، أي أنَّه يجعل الحركة ذاتية وليست إكتساباً، وعليه فإنَّ هاوكنغ يحاول أن ينحِّي إله آنشتاين جانباً محاولاً منه في إثارة بعض الشغرات داخل البناء الهندسي للكون وفق منظار النسبية العامة.

هاوكنغ هنا يحاول إضافة خطوة جديدة على ما بدأه آنتستين، فقد رأينا كيف أن الأخير أقرّ بعدم حاجة الإنسان الى الوحي من أجل الوصول الى قراءة الكون، يحاول هاوكنغ أن يُثبت أن الكون أيضا لا يحتاج الى محرك كي يستمر، غير أن المعادلات الرياضية التي تفتح باب الاحتمال لمثل هذا الرأي لا تزال بحاجة الى دعم تطبيقي داخل المختبر، وفي الفضاء أيضا.

١ - فجوة ما قبل الانفجار الكبير

بحسب النظرية النسبية العامة فإن الزمن (البعد الرابع) يكون قد بدأ مع الانفجار الكبير، وبالتأكيد فإن النظرية تبدأ مع الانفجار ولا تتناول حالة الكون الأولي، أو شكله الأولي، وبالتالي فإنها لا تتحدث عن حجم وحدود الكون قبل الانفجار، لأن الكون يصمت عن ذلك، والمراسد الفلكية عاجزة لحد الآن عن قراءة هذا الصمت، فالذي يمكن رؤيته وسماعه هو دوي الانفجار الكبير، وسرعة إبتعاد المجرات، وإنتفاخ الكون كبالون.

ووفق رؤية (كوفمان Kauffman) الذي يستخدم منهج النشوء والارتقاء في قراءة الكون أيضاً، فإننا في حالة القول بخضوع الكون لمنهج النشوء والارتقاء لن نرى إلا المنتصر، لأن ما سواه سيختفي (Discover: 37)، أي أن هناك مراحل من تاريخ الكون - والحديث يشمل شكل المادة والقوانين المسيّرة لها - تكون قد إختفت والى الأبد، أي أن الإنقراض الذي يحصل على الأرض مع الكائنات الحية يحصل في السماوات أيضا مع المادة، وهذا يعني أيضا أن عملية خلق الكون لم تكتمل بعد، وأنها مستمرة الى أزمان قادمة (Origins of The Universe: 125)، بل يبدو لي أن إكتمال عملية خلق الكون ستوقّف فقط عندما يصل الكون الى مرحلة الإنهيار الكبير (Big Crunch) فعند تلك اللحظة ستبدأ المادة الكلية للكون بالإنخساف الى الداخل، ويتحوّل الكون ككل الى ثقب أسود شاذ.

٢ - فجوة الثقب الأسود

مثلاً أنّ لكلّ شيء بداية ونهاية كذلك الأمر مع النجوم، فإنّها تولد وتمرّ بمراحل نموّ حتى تصل في النهاية الى شيخوختها فاحتضارها فموتها. والثقب الأسود هو نجم ميت، لكن لكي يتحقّق الثقب الأسود لابد من أن يكون النجم الميت نجماً عملاقاً، أي أنّ حجمه وكتلته أكبر من حجم وكتلة شمسنا بخمس مرّات على الأقل، لأنّها ستكون ذات قوّة جاذبية عالية جداً بحيث لا يوجد ما يصد أو يدفع إنخساف أو إنهيار لب النجم الى الداخل، يصاحب هذا الإنهيار تمزّق وانشطار النيوترونات الى ما يسمى بالكواركس (quarks)، ويستمر لبّ النجم بالتقلّص والإنكماش، وتنمو القوّة الجاذبة مع تنامي الإنكماش، بل ستكون الجاذبية من القوّة بحيث لا يمكن للضوء بسرعه الهائلة أن يفلت منها، وبإستمرار عملية تنامي الإنهيار ستصل كثافة اللّب الى نقطة الكثافة اللامتناهية (The Infinitely Dense Point) في الفضاء والزمن وتدعى بالمنطقة (الشاذة) لخروجها على كلّ قوانين الفيزياء، وستكون معزولة والى الأبد عن العالم بحدّ يسمّى بأفق الحدث (The Event Horizon)، لا شعاع يمكن أن يفرّ من لبّ النجم الى العالم، وأنّ أي شيء يدخل الى منطقة (أفق الحدث) سيتم إبتلاعه، ولن يعود للظهور ثانية، لأنّ النجم يكون قد تحوّل الى ثقب أسود في الفضاء والزمان (Probing Deep Space: 32).

تقول المعادلات الرياضية أنّ الكون يقوم على أربعة أبعاد هي (الطول والعرض والارتفاع والزمن)، غير أنّ الثقب الأسود يرفع عدد هذه الأبعاد الى أحد عشر بعداً، لا تزال سبعة أبعاد منها غير مرئية لحدّ كتابة هذه الأسطر، إلا أنّ العلماء يجهدون الآن في محاولة لخلق ثقب أسود داخل المختبر، ولو تحقّق ذلك فإنّنا سنقف ولأوّل مرّة إزاء عالم لم يكن مرئياً طيلة وجود الإنسان على الأرض.

عبر هاتين الفجوتين فإنَّ إله هاوكنغ ومن على شاكلته لا يعرف كلَّ شيء، لأنَّ المعرفة التي أنتجت لا تعرف كلَّ شيء، وهذا أعلى تمثّل أرضي للإله، فهي تجعله أمام أزمة معرفية .

كما قلت لدينا الآن - معرفيا - منطقتين عمياويتين، والحديث يخصّ علم الفيزياء والكون فقط . المعرفة تقف عمياء (بين) منطقتين، أما إحداهما فبداية مجهولة تماماً تمثّل الماضي، وأما الثانية فمجهولة وتمتلك القدرة على إفتاء كلِّ ما يقترب منها حتى الضوء تمثّل المستقبل، وهذا يعني أنّنا محاصرون بمجهولين، ولا يقول هاوكنغ والعلماء الذين على شاكلته أنّها من علم الغيب، لأنَّ الغيب هو المجهول الذي نحن قاصرون الآن عن بلوغه، فالعلم الحديث يضع ثلاث احتمالات لنشوء الكون : -

١ - إما أنّ الكون جزء من عالم لا نهائي، وهذا يعني أنّ ثمة أكوان أخرى .

٢ - أو أنّ الكون يحدث كسلسلة من الانفجار الكبير تنتهي بإنهيار كبير يقود الى إنفجار كبير وهكذا .

٣ - أو أنّ الكون بحسب النظرية الميكانيكية الكمية نتج عن إنفجار كبير، ثم بدأ ينشقّ الى أكوانٍ تنشطر بدورها الى أكوان .

وهذه الاحتمالات هي نتاج تجارب مختبرية تعتمد أحدث تقنيات الرصد والكشف، وكلّ منها يحمل تبريراته العقلانية ممّا يجعلها احتمالات حيّة قائمة، والبحث العلمي متّجه دون دليل وراء ما يمكن أن تكون الحقيقة، ولا يتردّد العلماء في الاعتراف بخطأ هنا أو هناك، وتجربة هاوكنغ نموذج على ذلك، فالكون ميدان بكر، والعلماء يتقدّمون في مجهول معتم .

هذا وقد توصل العلماء حديثاً الى إنتاج درجة حرارة هائلة تبلغ (٤ ترليون درجة حرارية) وهي كفيلة بإذابة مكّونات النواة الذرية، لذا بدأوا يتحدّثون الآن عن تحوّل مادة الكون الأولى الى نوع من (الحساء الآيوني)

"Break matter down into the kind of soup that existed microseconds after the birth of the universe".

وكما قلت فإنّ العلماء يحاولون الآن إنتاج ثقبٍ أسود داخل المختبر، وعليه فإنّ عقل إله هاوكنغ - والذين على شاكلته - يتطابق مع عقل هاوكنغ تماماً، يقف مستفهماً أمام الثقوب السوداء، لكنّه لا يتردّد في رمي نرده فيها، وعلى حدّ قوله: «غايتنا هي صياغة مجموعة من القوانين تعيننا على أن نتنبأ بالأحداث الى الحدّ الذي يرسمه مبدأ الرتبة» (موجز تاريخ الزمن: ٢٤٩)، وإذن فهو يتّبع مبدأ الرتبة الى أقصاه، وبذلك يكون هاوكنغ قد أعاد مبدأ (الإحتمال) ليجد له مكاناً في الكون بعد أن أخرجه أنشتاين منه.

أريد أن أقول هنا أنّ أنشتاين تعامل مع الكون على أنّ ثمّة كائن ضروري يقف خلفه، وكان يرى أنّ التوغّل في قراءة هندسة الكون هي في النهاية محاولة في قراءة عقل هذا الكائن الضروري، أما ستيفن هاوكنغ فإنّه يدخل الى الكون كما هو، يتعامل معه بتجريدٍ عالٍ، دون أن يضع إحتمالاً للكائن الضروري، لا يريد أن يغلق الدائرة كما فعل أنشتاين، لذا فهو أكثر حرّية في التوغّل، ولا يتردّد في إزاحة الكائن الضروري، أو في التوجّه إليه، إنّه يتبع البحث وما يقود إليه من نتائج.

(مات أنشتاين عام ١٩٥٥، وولد هاوكنغ عام ١٩٤٢).

هذا المثال البسيط والمهم في آن يكشف لي كيف تتغيّر صورة الإله في منظار الإنسان حسب تجربته الذاتية المنتجة لوعياها ولمعرفتها، وإله كلّ من أنشتاين وهاوكنغ - على اختلافهما الجذري - إلهان لا يمتّان بصلة الى آلهة التوراة والإنجيل والقرآن (191: the mind of god).

الإله الجديد لا يقيم طويلاً داخل علبة، على العكس تماماً، هو خارج نطاق التعليب، يتجدّد مع المعرفة، ينمو معها، ولا يقطع الطريق على البحث

والسؤال ، فليس هناك خطوط حمراء .

ولإزاء حجم الكون المنفتح ، وإزاء أعداد المجرات الهائلة التي تبتعد كأساطيل تشقّ ظلمات العدم ، لا يمكن أن يكون الإنسان - هذا الكائن الذكي - إلا بعض التفاصيل على الهامش ، ولا مركزيّة له على الإطلاق .

المبحث الثاني

الانتشار الجغرافي لعبادتي الرحمن والله
في شبه الجزيرة العربية
قبل الاسلام

أ- تمهيد

قلت لأبي مرّة وكنت في زيارة الى القرية بعد هجرتي الى بغداد: «هل تعلم يا أبي بماذا تمتاز قرية الزهيرات عن بغداد؟» قال: بماذا؟ قلت: بكثرة النجوم في الليل، وبكثرة البعوض.

في ليل القرية تُهيم عليك السماء بنجومها، ولطالما أحسست بأمومة الطريق اللبني، المجرّة التي كانت تعيد إليّ صلتني بالكون، وكنت أبحث في ظلام القرية عن الحبل السريّ لصلتي بالضوء البعيد، ولطالما شعرت بعدم بلوغي سنّ الفطام، وأنّ اللبن الذي تبدّى على السماء كان حصتي من الرضاعة، سرقة مني قدر غامض، أوقفني عن النمو.

الليل فقط يعيد إلينا صلتنا بالكون، يمنحنا القدرة على الإحساس بالإنتماء إليه، فما أن تبدأ أوّل خيوط الشمس بالظهور حتى تبدأ فرشُ المحو والحذف عملها، وما أن نبلغ الضحى حتى لا تُبقي عملية الإلغاء من الكون سوى الشمس.

من هذه الزاوية، من النهار بإعتباره متناً حاذفاً، ومن الليل بإعتباره هامشاً ليس محذوفاً تماماً، بقدر ما هو مسكوث عنه، أبدأ في إعادة قراءتي لنمو إلهين حنيفين كانا مستقلّين قبل الإسلام هما (الرحمن والله)، ومن ثمّ صيرورتهم في إله واحد في الإسلام هو (الله الرحمن)، بعد أن تحوّل (الرحمن) الى أحد ظلاله.

ب - أضع الشمس خلفي

للموصول الى الحقيقة التاريخية، أو إلى ما يمكن أن يكون الأقرب إليها، ينبغي البحث والتنقيب في الهامش المسكوت عنه للمدونة التاريخية، فالتدوين رغم تقصيره في الحفاظ على الحقيقة التاريخية كمركز، حاول دائماً، بقصدٍ أو بغيره، الإبقاء على ما يشير إليها في تلافيف الهامش.

وها أنا كمن يبحث عن ضوء الليل في ضوء النهار.

مبغني هذا يدور حول المركز ولا يتخذ مركزاً، ويركّز الإنتباه على مفصل وأحداث فردية وإجتماعية كانت سبباً وراء ما تمّ تثبيته لاحقاً باعتباره المركز.

مبغني يبدأ من المركز كما هو، ثمّ يتعد قليلاً قليلاً بإتجاه الهامش، مانحاً إيّاه بعض مركزيته الأولى. أي كما لو أنّي - محاولة في إعادة صلتني بالضوء - أضع الشمس خلفي، وأتجه عميقاً نحو قلب المجرة.

ج - هجرة الاعتقاد

ليس هناك أصعب من حديث البدايات، البدايات التي لم تُدَوَّن، وتغافل عنها الوقت، تجاهلها الناس، فضاعت أو كادت، لولا إشارات عابرة، لعلّ الصدفة وحدها، تقف بكلّ جبروتها لتباغت العقل المطمئن، العقل الراكد.

ومع هذا فالإنسان مولع بوضع البدايات، بداية لكلّ شيء، بل إنّه في كلّ خطوة يخطوها يضع بدايةً مغايرةً لما قبلها، لكنّه لا يتوقّف عن القول بأنّها البداية الأولى، ولعلّ أحدث بداية تمّ طرحها من قبل المنقبين في علم الآثار هي اكتشافات الآثار (كلاوس شمدر) في منطقة (غوبيكلي تيب) جنوب غرب تركيا، حيث أعلن عن اكتشاف أوّل معبد بشري على الأرض يعود بناؤه الى ما قبل أحد عشر ألف سنة، أي قبل أن يبدأ الإنسان بالعيش داخل مدن، بل قبل أن يفكر ببناء بيت له أصلاً، وأضاف شمدر أيضاً أن المعبد كان نقطة



انطلاق الحضارة البشرية، وبهذا تنقلب الحكاية من مدينة خلقت معبداً الى معبد خلق مدينة (أنظر : the worlds first temple)، وبالتأكيد لم يكن هذا التصريح إعتباطاً، بل جاء بعد نبش في الأرض قارب الخمسة عشر عاماً، أستخدمت فيها أجهزة الرادار الحديثة للكشف عن ما تحت التراب، وتشير التقارير البحثية الى وجود عدد كبير من التفاصيل لم يرفع عنها التراب، لأنها تحتاج الى آليات ذات تقنية عالية في الحفر، أي علينا أن ننتظر ماذا تُخبئ لنا التلال الصامته تحت تناوب الليل والنهار.

أريد أن أقول أنّ المعرفة البشرية لا تزال في أوان طفولتها، وأننا بمخيلة الأطفال هذه نُصِرَ على أنّنا تجاوزنا سنّ الرشد، وأننا نجلس الآن على تلال الحكمة التي تعرف كلّ شيء.

سيكون في حديثي قدرٌ كبيرٌ من المباغته، ولا أدعي أنني أوقف التاريخ على قدميه، لكن، أفتح أبواب العقل لاستماع لغة أخرى، المعنى الجديد لغة جديدة، كذلك الدهشة، بل والخوف أيضاً يحمل دلالة لغة جديدة، الخوف من سماع صوت مُغايرٍ مُختلفٍ، صوت لا يمتّ بحبلٍ سرّيٍّ مع الثابت، ويدرك جيّداً أنّ (التقديس) مهنةٌ بشريةٌ كالحلاقة والحداة، لكنها مهنة ذات أجر مؤجل، لذا أقترح إدراج الدين ضمن تحديد صفة المهنة في هوية الأحوال المدنية، فتكون كالآتي: خطاب بوذي، صيرفي يهودي، نجار مسيحي، كاتب عرائض مسلم، أما الطوائف والتفرعات الثانوية فإنّها أشبه ما تكون بالتخصّص ضمن الإداء الوظيفي.

إذن فلأبدأ حديثي بالسهل الممكن حتى بالنسبة للعقل الراكد، ولأتحدّث عن (هجرة الإعتقاد)، أقصد هجرة الأشخاص الذين يمتلكون إعتقاداً خاصاً لا يتطابق مع إعتقاد المؤسسة، سواء أكانت هذه المؤسسة عائلة، أو رفقة، أو قبيلة، أو طائفة، أو ملة، أو حزب، أو دولة، أو أمة.

الهجرة هرباً من البطش، كانت ولا تزال دراما بشرية يتم إستنساخها بشكل يومي، سواء أكان دافع البطش هنا دينياً، أم سياسياً، أم إجتماعياً، أم ثقافياً. تروي أحجار التاريخ أنّ يهود (فدك وتيماء) قدموا مع (نبونائيد) آخر ملوك بابل، عندما إتخذ من (تيماء) عاصمة أخرى لمملكته قبل سقوطها على يد الفرس سنة (٥٣٩ ق. م)، وأنّ بعض حصون اليهود المشهورة في الحجاز قبل الإسلام - كالأبلق حصن السموأل مثلاً - كانت من بقايا القصور التي بناها نبونائيد (المفصل: ٦ / ٤١٣ - ٤١٤)، ووجود مركز إقامة يهودي في الحجاز هو الذي جعل عملية هجرة اليهود إليه أمراً يسيراً «في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام (٧٠) للميلاد، وتنكيل هديران بهم في عام (١٣٢) للميلاد» (المفصل: ٦ / ٤٠٩).

وبالتأكيد فإنّ تواجد اليهود في شبه الجزيرة العربية لم يقتصر على الحجاز فقط، بل أنّهم تدريجياً إنتشروا في كلّ أرجائها، بل أصبحوا قوّة حاكميّة في اليمن قبل بداية الهجرات المسيحية إليها.

وفي اللحظة التي كانت شبه الجزيرة العربية - قبل الإسلام - حاضنة للتعددية الثقافية، كانت المؤسسة الكنيسية تشعّب الى طوائف وفرق لا تتردّد في إسقاط صفة الضلال على بعضها البعض، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل كان القتل والصلب هما ذراعا الطائفة الحاكمة، وبهذا كانت الهجرة هرباً من بطش المؤسسة المسيحية سبباً رئيساً في إنتشار الدين المسيحي في العراق وفي شبه الجزيرة العربية.

من هنا كانت الفرق المسيحية كالآريوسية والنسطورية واليعقوبية والأيبونية - الخطوط المعارضة للمؤسسة المسيحية الحاكمة - تتواجد بكثرة سواء في العراق تحت حماية الفرس، أو في شبه الجزيرة على رؤوس الجبال المشرقة على



طرق التجارة، حتى أصبحت مناراتهم المضئية ليلاً جزءاً من علامات الطريق، ونافذةً للتشبيه عند شعراء العرب كأمريئ القيس مثلاً (أشعار الشعراء الستة: ٣٥)، ولم يقتصر تواجد المسيحيين على رؤوس الجبال، بل أقاموا داخل المدن أيضاً كاليمامة ومكة، ولعلّ كارثة إحراق المسيحيين في نجران سنة (٥٢٠ م) على يدي ذي نواس صاحب الأخدود (الإكليل: ٧١ / ٢) وكان قد تهوّد - وهي الكارثة التي أُشير إليها في القرآن: ﴿قِيلَ امْكُتُوا الْأَخْدُودَ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُ ﴿٥﴾ (سورة البروج: ٤ - ٥) - جعلت من منطقة (نجران) أشهر مراكزها، وقد ورد على لسان النابغة الجعدي وهو من الجيل الأوّل للأحناف: «وما زلت أسمى بين بابٍ ودائرة بنجران حتى خفت أن أتنصراً» (الديوان: ٥٨)

لم تكن هجرات المسيحيين لأجل التجارة أو السياحة والإكتشاف، ولم تكن من أجل نشر المسيحية بين العرب والأعراب، بل كانت الهجرة بحثاً عن النجاة والإقامة بدءاً، ومن ثمّ جاء التبشير لاحقاً، التبشير خلّقه طمأنينة الإقامة، ولأنهم كانوا مسالمين، استطاعوا أن يكسبوا مودة العرب والأعراب، فلم تذكر كتب الأخبار مثلاً أنّ أفراداً من البدو فكّروا بغزو صومعة راهب أو متعبّد، رغم أنّ بعض الرهبان كان من التمكن المادي الى درجة إستضافة قافلة أو جماعة عابرة.

ومع هذا كان هناك من المسيحيين من تمّ أسره أو استرقاقه (سليمان الفارسي نموذجاً).

وتاريخياً بدأت هجرات المسيحيين الى شبه الجزيرة مع بداية إضطهاد الكنيسة الرسمية للآريوسيين في أوائل القرن الخامس الميلادي، وتوقفت هذه الهجرات أو إنكمشت مع صعود الإسلام بعد وفاة محمد بن عبد الله في الربع الأوّل من القرن السابع الميلادي.

ما أريد التنبيه إليه هنا، أنَّ الأفراد يهاجرون مع إعتقاداتهم، ومع ممارساتهم الاجتماعية التي تشير الى خصوصيتهم وإختلافهم، فاليهود خلقوا مجتمعات يهودية، كما خلق المسيحيون مجتمعات مسيحية.

وببدو أنَّ هجرة المسيحيين الى شبه الجزيرة العربية كانت دافعاً اجتماعياً مهماً عَجَّل في تصعيد لغة الحوار الديني عربياً، وبالتأكيد فإنَّ العرب لم يقتصروا على سماع آراء الآريوسيين والنساطرة واليعاقبة والأبيونيين، بل أنَّ رحلاتهم التجارية - شتاءً وصيفاً - جعلتهم يحتكّون أيضاً بالمؤسسة المسيحية الحاكمة سواء أكانت في بلاد الشام، أو في بلاد اليمن والحبشة.

لقد ساهمت الهجرة المسيحية المعارضة كثيراً في تعجيل ظاهرة اجتماعية عربية، إبتدأت فردية مُقلَّدة، لكنّها مع مرور الوقت، بلغت حدَّ الإجتهااد، بعد أن تشكلت هويتها كصاحبة رأيٍ خاص مختلف، أقصد هنا ظاهرة التحنّف العربي، التي تتّوجت بتيار الأحناف قبل الاسلام.

الفصل الأول:

الانتشار الجغرافي لعبادتي الرحمن واللّه في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

أ - تمهيد

سألني بإستغراب طفل أسترالي من أصل (إنجليزي/ إسباني)، وكنت أنصفح كتاباً عربياً من اليمين الى اليسار، أي بعكس ما يفعل القارئ الإنجليزي، قال: كيف تستطيع أن تقرأ الكتاب من نهايته؟!

قلت ضاحكاً وقد أعجبني السؤال: رُبّما لأننا نأخذ الأشياء بنهاياتها.

وبالتأكيد، يتشابه في ذلك العرب والعجم على حدّ سواء، فهذا ديدن بشري، وطبيعة لا يتخلّص منها الإنسان، رغم أنّ هنا وهناك دائماً من يبحث في الجذور ويعلن عنها بين حين وآخر، فيتقاضى الناس عن الإلتفات الى نتائج البحوث، مكتفين - كذواتٍ مُقلّدةٍ تبحث عن النجاة - بالمعرفة الجاهزة، لأنّ الأمر قد حدث وانتهى، ولا مجال للتغيير حسب رأيهم.

وحتى لا يكون كلامي مُحيطاً فإنّ التغيير البشري لا يتوقّف على المقلّدين وإن كثروا، وقديماً قال الزمخشري: «إن كان للضلالِ أمٌّ فالتقليدُ أمُّهُ» (أطواق

الذهب: ٦٩)، لأن التقليد في النهاية نوع من التقنّف وإلغاء الذات، ومع هذا فانا أرى شعوباً متقنّدة هنا وهناك على سطح الكوكب.

أحاول هنا - في هذا المبحث والمباحث التي ستليه - ألا أقف عند الخطوط الحمراء التي تُسَيِّجُ العقل الباحث، متّجهاً نحو فكّ الألفاظ التي ساهمت بصناعة بعض أشكال التقنّف على سطح الأرض.

وكأثاري أبدأ تنقيبي في تلال اللغة المترامية طمعاً في دفائن التراب، وهي من القيمة بحيث يجب أن تستقر في الذاكرة/ متحف العقول، كي لا تغيب عن الأذهان، وتظلّ تشير الى البدايات البعيدة المختلفة، وبالتأكيد سنرى كيف يشير التراب الدفين بأصابع كثيرة الى تلال أخرى تقيم في الجوار في المنطقة ذاتها، أو في بلدان أخرى، وما علينا إلا أن نتّبع الإشارة الى أقصاها، محاولة في خلق فضاءات جديدة لرغب سينمو على أجنحة أجنة تشكّل في الأرحام.

ب - الرحمن لغة

قيل أنّ الرحمن: صفة بُنِيَتْ على وزن فعّال لأنّ معناه الكثرة، قال الزجاجي: والرحمن إسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأوّل ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأنّ فعّال بناء من أبنية المبالغة (اللسان: مادة رحم)، وقيل أنّ الرحمن صفة منفردة لله، لا يوصف بها غيره (الاشتقاق: ٥٨).

وقيل في «الرحمن الرحيم»: جمع بينهما لأنّ الرحمن عبراني والرحيم عربي (اللسان: مادة رحم)، وفي السريانية ترد كلمة (رَحْمَانَا) وهي إعادة للكلمة الآشورية (رِمْنُو) التي قيل أنّها وردت كصفة لآلهة عديدة في منحوتات تعود الى القرون الثلاث الأولى عُثِرَ عليها في تدمر (تاريخ القرآن - نولدكه: ١٠١).

ومن خلال حواراتي الشخصية مع أثوريين وجدت أنّ إسم الرحمن لديهم هو

(رخمانا) لَأَنَّ أَبْجَدِيَّتَهُمْ تَخْلُو مِنْ حَرْفِ الْحَاءِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى اسْمِ الرَّحْمَنِ كِإِلَهِ، وَيَقُولُ الْكَلْدَانِيُّونَ: (مَرْحَمَانَا) وَيَقُولُ الْآثُورِيُّونَ: (مَرْخَمَانَا)، بَيْنَمَا يَقُولُ الْمَنْدَائِيُّونَ (مَرْهَمَانَا) (الصَّابِئَةُ الْمَنْدَائِيُّونَ: ٣٤٤) وَفِي الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ تَعْنِي (رَحِيم) كَصِفَةٍ وَلَيْسَ كِإِسْمٍ، أَيُّ أَنَّ حَرْفَ الْمِيمِ فِي أَوَّلِهَا يَجْعَلُ الْإِسْمَ صِفَةً. وَكَانَ الْمُبَرِّدُ وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى مِمَّنْ يَقُولُونَ بِعِبْرَانِيَةِ اسْمِ الرَّحْمَنِ أَيْضًا (تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ٦٥).

وَقَدْ ذُكِّرَتْ كَلِمَةُ الرَّحْمَنِ مِنْ ضَمْنِ غَرِيبِ الْقُرْآنِ فَقِيلَ فِيهَا أَنَّهَا اسْمٌ مِنَ الرَّحْمَةِ (مَعْجَمُ غَرِيبِ الْقُرْآنِ: ٦٨)، بَيْنَمَا حَاوَلَ الْقُرْطُبِيُّ - وَهُوَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُونَ بِإِسْتِقَاقِ الْكَلِمَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ - تَفْسِيرَ ذَلِكَ فَقَالَ: «وإنكار العرب لإسم الرحمن لجهلهم بالله وما وجب له» (تفسير القرآن العظيم: ٦٥).

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ وَرَدَ عَنْ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ - وَهُوَ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ - قَوْلُهُ:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَبْنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَغْفِدُ وَيُطْلِقُ
أَوْ قَوْلُ الشَّنْفَرِيِّ أَحَدِ صَعَالِيكِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ:

لَقَدْ لَطَمْتَ تِلْكَ الْفَتَاةَ هَجِينَهَا أَلَا بَتَرَ الرَّحْمَنُ رَبِّي بِمِمينِهَا
(الاشتقاق: ٥٨ - ٥٩)

وَفِي حَوَارِيَةٍ أَوْ مَسَائِلَةٍ شَعْرِيَّةٍ بَيْنَ عُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَامْرِئِ الْقَيْسِ، الْأَوَّلُ يُسْأَلُ وَالثَّانِي يُجِيبُ، يَرَدُّ فِي الْمَسَائِلَةِ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ لِمَرَّتَيْنِ عَلَى لِسَانِ امْرِئِ الْقَيْسِ بِاعْتِبَارِهِ مُرْسِلَ السَّحَابِ وَمُنْزِلَ الْمَوَازِينِ (أَنْظَرِ دِيوَانَ عُبَيْدٍ: ٨٠، دِيوَانَ امْرِئِ الْقَيْسِ: ٦٧).

وَقِيلَ الرَّحْمَنُ إِسْمٌ مَخْتَصٌّ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ وَلَا يُوصَفُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ فَعَادِلٌ بِهِ الْإِسْمُ الَّذِي لَا يُشْرَكَ

فيه غيره (اللسان: مادة رحم)، وعن ابن المبارك أنه قال: «الرحمن إذا سُئِلَ أعطى، والرحيم إذا لم يُسأل غضب»، وجاء في حديث نبوي: «من لم يسأل الله يغضب عليه» (تفسير القرآن العظيم: ٦٥).

وقد إنتبه المفسرون الى إشكالية تقديم اسم الرحمن على اسم الرحيم مع أن الأجدد أن يُقدّم الرحيم على الرحمن لأنّ ترقّي المعنى يقتضي ذلك، فقال الشيخ محمد جواد البلاغي: «لصيرورته بالإختصاص كالواسطة بين العلم والوصف فناسب بينهما، أو لأنّ الملحوظة في مقام التعظيم جلائل النعم وغيرها كالتّمّة فقدّم وأردف بالرحيم للتعميم تنبيهاً على أن جلائلها ودقائقها منه تعالى» (تفسير شبر: ٣٨)، وهي محاولة في تخريج الإشكال ليس إلا.

قيل أن الرحمن كلمة معرّبة عن أصلٍ عبري «رحوم: rahum» (Dictionary of Islam: 532)، غير أن العرب يقولون: «إمرأة رحوم تشتكي رَحِمَهَا» (معجم ألفاظ القرآن: ١٩٧).

ويبدو أن (الرحمن) ككلمة وكإسم كان نادر الإستخدام في اللغة الآرامية المسيحية، لكنّها أصبحت في التلمودين - البابلي والفلسطيني - أحد أسماء الله المعروفة (تاريخ القرآن - نولدكه: ١٠١).

وقيل أن الرحمن عبراني، وأصله بالخاء المعجمة، أي رخم (تاريخ القرآن - نولدكه: ١٠١)، ويقال رخمان ورحمان: قال جرير:

أَوْ تَتْرَكُونَ إِلَى الْقَسِيِّنَ هِجَرَتَكُمْ وَمَسَحَكُمْ صُلْبُهُمْ رَخْمَانٌ قُرْبَانَا؟

(اللسان: مادة رخم)

ورخمان موضع، ورخمان إسم غار ببلاد هذيل، قيل أُلقي فيه تائبٌ شراً بعد قتله، فقالت أخته تربيته:

نَعَمْ الْفَتَى غَادَرْتُمْ بِرَخْمَانٍ

بثَابِتِ بْنِ جَابِرِ بْنِ سُفْيَانَ

مَنْ يَقْتُلِ الْقِرْنَ وَيُرْوِي الثُّنْمَانَ

(شرح ديوان الحماسة: ٢ / ١٦٠، اللسان: مادة رخم).

ويبدو لي أنَّ هذا الغار كان موقعاً لعبادة (الرخمن) العبري التي تحوّلت في اللسان العربي الى الرحمن، وهذا يتطلب البحث في تاريخ هذيل، أو ما بقي من أخبارهم لعلّها أن تكون مفتاحاً.

ج - لا علاقة للرحمن بالرحمة

والعودة الى بيتي كلّ من سلامة بن جندل والشنفرى، نجد أنَّ الأوّل قد وصف الرحمن بالكاسر العظم القوي حين قال:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا حِجَّتَيْنِ عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَغْقِدُ وَيُطْلِقُ
هُوَ الْكَاسِرُ الْعَظَمَ الْأَمِينَ، وَمَا يَشَأُ مِنْ الْأَمْرِ، يَجْمَعُ بَيْنَهُ، وَيُفَرِّقُ
هُوَ الْمُدْخِلُ الثُّعْمَانَ بَيْتاً، سَمَاوُهُ نُحُورُ الْفَيْوَلِ، بَعْدَ بَيْتِ مُسَرْدَقِ

(ديوان سلامة بن جندل: ١٨٢)

ثمّ لنتابع في البيت الثالث كيف أنَّ الرحمن أدخل النعمان بن المنذر بيتاً كانت سماؤه «صدور الفيول» - بحسب رواية ابن منظور - بعد أن كان في بيته آمناً محاطاً بالحرس.

بينما نجد أنَّ الشنفرى قد وصف الرحمن بالباتر أو البتار في قوله:

لَقَدْ لَطَمْتَ تِلْكَ الْفَتَاةَ هَجِينَهَا أَلَا بَتَرَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

أتساءل هنا ما علاقة (الكسر والبتّر) بالرحمة؟ كان على ابن جندل وعلى الشنفرى أن يستخدموا أسماء أخرى أو صفاتٍ أخرى لإلههما كالجبار، أو القهار، أو المنتقم، أو ذو البطش، أو شديد المحال، وليس الرحمن، رغم أنني رأيت في بغداد محل قصابة كان يحمل عنوان «قصابة الرحمن»، وقد

ضحكت يومها من التسمية، لكنني الآن أضحك على جهلي يومذاك .
أريد أن أقول هنا أنّ أبيات ابن جندل وبيت الشنفرى تكشف تماماً أنّ
(الرحمن) إسم علم خاص بإله، وأنه في نفس الوقت لا يمتّ بحبل سرّي
لإشتقاقه العربي المزعوم، وهذا يدفعني الى القول أنّ اسم الرحمن إذا ما كان
له اشتقاق فينبغي أن يكون ضمن اللغة التي تمّ ترحيله منها الى اللغة العربية،
ولعلّ اشتقاقه أن يكون ضمن اللغة الآرامية، أو ضمن أيّ لغة أخرى أبعد منها
زمنيّاً، وأنّ دخوله ضمن اللغة وجريانه على اللسان كان باعتباره إسم علم لإله،
ويبدو لي أنّه دخل الى العربية بصيغة (رخمان) بدءاً، وهذا يتطلّب توسيع دائرة
الإشتقاق عربياً لتشمل مادة (رخم) أيضاً، إضافةً الى مادة (رحم).

د - ملاحظة جانبية

من مصائب البحث التاريخي أن ينطلق الباحث من آراء مسبقة، لأنّ الرأي
المسبق يُفَقِّدُ الباحث قدرته على تحسّس التضاد من زاوية أخرى، ويصيبه
بالشلل إزاء قراءة كلّ جديد يمكن أن يؤسّس لرؤية أخرى، كنموذج لهذه
الممارسة نرى كيف وقع الدكتور عبد الغني زيتوني في فخّ القراءة المؤسساتية
الإسلامية حين اعتبر أنّ ابن جندل عندما يذكر الرحمن إنّما يتحدّث عن الله،
وأنّ الرحمن هو الله وليس إله آخر يدعى الرحمن (الوثنية في الأدب الجاهلي :
٢٠٧)، ولو أنّه إنتبه قليلاً للتضاد الدلالي بين اشتقاق إسم الرحمن في منظور
المؤسسة الإسلامية وبين دلالاته عند ابن جندل لما شكّ لحظةً في أنّ الرحمن
إله آخر غير الله .

كذلك الأمر مع ابن دريد حين لم يتوقّف عند قراءة دلالة الرحمن في بيت
الشنفرى السابق، فقط لأنّ البيت «لم ينقله الثقات» على حدّ تعبيره (الاشتقاق :
١ / ٥٨ - ٥٩).



أريد أن أقول هنا أنَّ الأبحاث التاريخية بمجملها تنشطر الى شطرين رئيسين :
(١) أما أن تكون بحثاً عن حقيقة .

(٢) أو إسناداً لحقيقة .

والثانية ستعتمد تكرار ما هو معروف ومقرّر سلفاً، فلا يمكن أن نتظر جديداً منها، أما القراءة التي تبحث عن حقيقة، فإنها بالتأكيد تتطلب من القارئ جهداً كبيراً لأنه سيكون مطالباً بدءاً بموقفين :

(١) أن يكون مشرفاً على الحدث التاريخي، أي أن يكون واقفاً خارج نطاق الدائرة المؤسسية .

(٢) أن لا يتردّد إزاء الإنفتاحات الجديدة .

في حال تحقّق هذين الموقفين، فإنّ نتائج البحث ستكون حتماً خارج نطاق التكرارية المقيّنة .

هـ - العمق الزمني لعبادة الرحمن

يذكر جواد علي أنَّ عبادة الرحمن (رحمن) عبادة توحيد ظهرت من جزيرة العرب بعد الميلاد، وقد وردت كلمة (رحمن)، أي الرحمن في نصّ يهودي جاء فيه «الرحمن الذي في السماء وإسرائيل وإله إسرائيل ربّ يهود» (المفصل : ٦ / ٣٠ - ٣١)، جعل البعض يعتقد أنَّ عبادة الرحمن دخلت الى الجزيرة مع هجرة اليهود إليها، وقد إنتبه بعض الباحثين الى ابتداء النصّ بإسم الرحمن أولاً، ثمَّ أُرِدَفَ برَبِّ يهود، إضافة الى ذلك ورود إسم الرحمن في كتابة أخرى تعود الى سنة (٤٦٩ م) كتبها صاحبها شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته، مما جعلهم يناقضون رأي القائلين بأنَّ عبادة الرحمن أقتبست من اليهود (المفصل : ٦ / ٣١) .

مما تقدّم يمكن أن نتوصّل الى أنَّ العرب كانت تعرف (الرحمن) بإعتباره

إسم علم خاص لإله كان يُعبد في اليمامة وفي اليمن، أما سؤال قريش: «ما الرحمن؟»، يعني أنهم كانوا يسألون عن دلالة الكلمة، وليس عن الإله، لأنهم لو أرادوا ذلك لاستخدموا (مَن) للعاقل بدلاً من إستخدامهم (ما) لغير العاقل.

وأنا هنا أعتقد بأنّ (الرحمن) ككلمة ليس عربياً، بل تمّ تعريبه، وأنّه كعبادة هاجرت من الشمال الى الجنوب، دون أن أحدّد جهةً بعينها، فقد هاجر بعض الصابئة أيضاً الى شبه الجزيرة العربية بعد سقوط بابل، ولعلّ للرحمن صلة نسب بأنو كبير آلهة السومريين، وأنّ رحمان جاءت من (رحم آنو)، على حدّ تعبير بعض المندائيين، ونحن هنا ننتظر من متخصص باللغة السومرية أن يقوم بالإشتغال على هذه المنطقة تحديداً لعلّه يجد دفينة لم تر النور بعد.

أما بخصوص إستخدام (الرحمن الرحيم) في القرآن فأنا أرى أنّ الرحيم صفة للرحمن، وإنّ جملة «الرحمن الرحيم» كانت جواباً لسؤال قريش «ما الرحمن»، فقد وردت: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (سورة فصلت: ٢)، كما وردت ﴿الْكَافِرُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الفاتحة: ٣)، إضافة الى ورودها ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (سورة النمل: ٣٠)، وهي إشارة واضحة الى أنّ الرحيم صفة للرحمن، وأنّ الرحمن إسم علم معرّب، فهو إذن خارج نطاق الإشتقاق العربي، وهذا يلغي إشكالية تقديم الرحمن على الرحيم، ويرفع تكلف العلماء في إيجاد تبرير لذلك كما فعل الشيخ محمد جواد البلاغي.

وأما قولهم أنّ الرحمن هو رحمن العالمين جميعاً، وأنّ الرحيم خاص بالمؤمنين (أسرار التكرار: ٦٥) ففيه إشارة واضحة الى أنّ الرحمن ربّ، وأنّ الرحيم صفة.

و - الإنتشار الجغرافي لعبادة الرحمن

لا يمكنني هنا إلا أن أورد ما عثرت عليه من ما تمّ الحفاظ عليه من نصوص أشارت الى الرحمن أو الى عبادته، سواء في كتب السيرة والأخبار، أو ما تمّ العثور عليه من كتابة على شواهد القبور أو كتابات أخرى مثل كتابة (أبرهة الحبشي) حين رَمَم سد مأرب. وبالتأكيد فأنا هنا أركز على الإنتشار الجغرافي لعبادة الرحمن، محاولاً قدر الإمكان رسم خارطة لهذا الإنتشار في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

١ - كتابات من قبل الإسلام تذكر اسم الرحمن

ذكرت في الفقرات السابقة كيف أنّ الآثاريين عثروا على بعض الكتابات التي دُكِرَ فيها اسم الرحمن، وأن بعضها كان ذا مرجع يهودي، كما ورد اسم الرحمن مع اسم المسيح في كتابة أبرهة الحبشي التي عُثِرَ عليها على أحجار سد مأرب، بينما جاء الرحمن في بعض الكتابات باعتباره الإله الأوحد ربّ السموات.

٢- أنبياء يدعون لعبادة الرحمن

ورد في كتب السيرة الإسلامية أن قريش حاججت محمد بن عبد الله حين قال «بسم الله الرحمن الرحيم»، واتهمته باتباع رحمن اليمامة. وذكرت عدة أخبار تشير الى أن للرحمن داع هو (مسلمة الحنفي) وأنه كان يدعو الى عبادة الرحمن قبل نزول الوحي على محمد بن عبد الله (مسلمة الحنفي: ٧٤).

وفي خبر آخر أن محمد بن عبد الله حين استقبل وفد اليمن قال «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن» (الدر النضيد: ٧٩).

ويمكن أن نرى أن سبب إنتشار عبادة الرحمن التي دعى اليها (عبهة العنسي) كان عائدا الى معرفة اليمنيين باسم الرحمن قديما، ويبدو أنها كانت عبادة قد

أصابها الترهّل تحت تأثير الجدل المستمر مع أصحاب الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية.

وقد بدأت دعوته من حضرموت من كهف خَبّان حيث ولد وعاش (أديان العرب وخرافاتهم: ٧٥)، ثم انتشرت في اليمن، وكان ظهورها على اليمن في السنة العاشرة للهجرة قد تزامن مع ظهور محمد بن عبد الله على مكة والطائف ويثرب.

٣ - شعراء يذكرون الرحمن كإله

ما تبقى هنا هو ليس كل ما كان، لكنه إشارة الى وجود نصوص أخرى لم تصل وأكلها التناسي أو النسيان.

وقد رأينا ما ورد على لسان سلامة بن جندل وهو من شعراء بني تميم قبل الإسلام في قوله:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا حِجَّتَيْنِ عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَغْفِدُ وَيُطْلِقُ
هُوَ الْكَاسِرُ الْعَظَمَ الْأَمِينُ، وَمَا يَشَاءُ مِنْ الْأَمْرِ، يَجْمَعُ بَيْتَهُ، وَيَفْرُقُ
هُوَ الْمُدْخِلُ الثُّعْمَانَ بَيْتاً، سَمَاوُهُ نُحُورُ الْقُيُولِ، بَعْدَ بَيْتِ مُسَرَّدِ

(ديوان سلامة بن جندل: ١٨٢)

وقد مرّ بنا أيضاً بيت الشنفرى:

لَقَدْ لَطَمْتَ تِلْكَ الْفَتَاةَ هَجِينَهَا أَلَا بَشَرَ الرَّحْمَنَ رَبِّي يَمِينَهَا
والشنفرى من بني سلامان بن مفرج بن مالك بن زهران، وكان يغير عليهم لأنهم قتل رجل منهم أباه، فلم يطلبوا بثأره فلحق ببني فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر، وكانوا أخواله (جمهرة: ٣٨٦).

إضافة الى ما ورد على لسان حاتم الطائي:

كُلُّوا الْآنَ مِنْ رِزْقِ الْإِلَهِ وَأَيْسَرُوا فَإِنَّ عَلَى الرَّحْمَنِ رِزْقَكُمْ غَدَا

(الوثنية في الأدب الجاهلي: ٢٠٨)

٤ - تلبيات بعض القبائل وهي تتجه للحج

وكانت تلبية قيس عيلان كما وردت في (تاريخ اليعقوبي: ١ / ٢١٨):

«لييك اللهم لبيك

لييك أنت الرحمن

أنتك قيس عيلان

راجلها والركبان»

وكانت تلبية عك والأشعرين:

«نحج للرحمن بيتاً عجا

مستراً، مضياً، محجياً»

(تاريخ اليعقوبي: ١ / ٢١٩)

٥ - التسمية بعبد الرحمن

وقد ورد عن ابن الكلبي انه قال: «وقد سمّت العرب في الجاهلية عبد الرحمن، قال: سمى عامر بن عتارة ابنه عبد الرحمن» (الاشتقاق: ٥٨)، «بينما نجد عند ابن حزم أنه عبد الرحمن بن عتارة بن عامر بن ليث بن عبد مناة وهو أول من سُمي في الجاهلية بعبد الرحمن» (جمهرة: ١٨٢)، وهو من البطون التي ترجع الى كنانة بن خزيمة (جمهرة: ١٨٠).

فإذا كانت اليمامة تمثل نجد والعروض، فإنّ المساحة الجغرافية لعبادة الرحمن من خلال الاحاديث الواردة سلفاً تمتد في نجد شمال وشرق شبه الجزيرة الى اليمن جنوباً دون الحجاز.

الفصل الثاني:

الانتشار الجغرافي لعبادة (الله) في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

أ - تمهيد

يمكنني القول هنا، أنّ المعاجم اللغوية قد حلّت محل الأساطير القديمة في موضوعة تدوين أنساب الآلهة، وبالتأكيد فإنّنا لا نجد ذلك صراحةً، لكن، وفق قراءة ترى أنّ اللغة نتاج إجتماعي مرحلي، تنمو وتنكمش مع نمو وانكماش المراحل التاريخية للمجتمع، وأنّها في النهاية تمثّل النمو التدريجي للوعي الاجتماعي، أقول أنّ مثل هذه القراءة يمكن أن تتحسّس الحبال السرية التي تربط الكلمات، إسماً بإسم، أو إسماً بفعل، دون أن ننسى بعض العقبات التي تعمل على قطع صلة النسب أيضاً، عندما يذكر أهل اللغة إسماً ما ويقولون انه اسم علم لا اشتقاق له، وهي إشارة واضحة الى تجربة منفردة قائمة بذاتها على تربة اجتماعية خصبة تمتلك الاستعداد او القابلية على تقبّل هذا الإسم أو هذه الكلمة كتجربة وكدلالة على الصعيدين اللغوي والاجتماعي.

وبما أنّنا نفتقر الى التاريخ الحقيقي لولادة كل كلمة داخل القاموس، فإنّ

عمليات الإشتقاق والتصريف تتضمن إشارة واضحة لهذا النمو، وهو ما دفع البعض الى البحث في مدى منطقية اللغة العربية (كتاب الأب مرمرجي الدومينيكي إنموزجاً)، دون أن ننسى ترك فسحة للإعتباطية أيضاً وفق مبدأ الريبة العلمي، وهنا، في هذا الفصل تحديداً سأحاول تتبع (نسب اسم الله) في اللغة العربية، لأنها في النهاية ستكشف بوضوح تام (نسب الوعي بالله) داخل المنظومة المعرفية الحنيفية بدءاً ومن ثم الإسلام، ومراحل تطوره التاريخية. إذن أبدأ هنا بقراءة الجغرافية الزمنية لانتشار عبادة الله في شبه الجزيرة العربية، وستكون اللغة هي الأداة لقياس هذا العمق.

ب - الله لغة

نقل سيبويه عن الخليل أنّ أصل كلمة الله: إلاه، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة. وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه (تفسير القرآن العظيم: ٦٤).

وقيل أنّ الله مأخوذ من أله يألوه إذا تحير، لأنّ العقول تأله في عظمتها إشارة الى قول علي بن أبي طالب: «كُلُّ دَوْنِ صِفَاتِهِ تَحْيِيرُ الصِّفَاتِ، وَضَلُّ هُنَاكَ تَصَارِيفُ اللِّغَاتِ» (معجم مفردات ألفاظ القرآن: ١٧).

كما قيل أنّ أصل اسم الله: إلاه، لأنه مألوه، أي معبود (اللسان: أله). وقيل إنه من لاه يلوّه: إذا احتجب. وقيل أنه مشتق من الإرتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهها، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت (تفسير القرآن العظيم: ٦٥).

أي إنّ اسم (الله) يتضمّن الإرتفاع والإنحجاب، فهو المتعالي المنحجب. ومع هذا فقد ورد عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنّ الله إسم علم لا اشتقاق له (قاموس الشريعة: ١٦١)، وهو ما أراه أيضا.

١ - الألة:

مما بقي في كتب اللغة فإن العرب كانت تطلق على الشمس إسم (الألاهة)، أي أنها كانت تُؤنث إسم (الله)، وقد ورد في قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس والضحاك: «ويزرك ولآهتك»، قال قُطْرُب: أراد الشمس، وأنت الإله بالهاء، وقال الشاعر:

تَرَوْحُنَا مِنَ السُّعْبَاءِ عَصْرًا فَأَعْجَلْنَا إِلَٰهَةً أَنْ تَوُوبَنَا

يعني الشمس (الأزمة وتلبية الجاهلية: ٨٨).

والألاهة: الشمس الحارة، وحكي عن ثعلب: الألية، والألاهة، والإلاهة وألاهة كلّه: من أسماء الشمس. وقيل أن الإلاهة: الحبة العظيمة، وهي الهلال (اللسان: مادة أله)، وقد اختفى هذا الإسم من القاموس الحياتي اليومي مع صعود إسم (الله).

٢ - اللهم:

وكانوا يقولون (اللهم)، وفي اعتقادي أنه إسم مرحلي واكب نمو وصيرورة الإعتقاد باله مختلف عن كلّ الآلهة الوثنية، وأنه كإسم دخل الى اللغة العربية قبل إسم (الله).

اللغة تمثّل وعي الإنسان، من هنا، فإنّ إسم (اللهم) يمثّل مرحلة من الوعي سابقة لمرحلة الوعي باسم (الله)، والذي يدفني للإعتقاد بأنّه إسم لوحده ما ورد في كتب الأخبار عن كيفية دخول جملة «باسمك اللهم» الى مكة عن طريق أمية بن ابي الصلت، وكان قد أخذها عن راهب يقيم في صومعة على طريق القوافل الى الشام (مروج الذهب: ١ / ٧٤)، إضافة الى قرابة اسم (اللهم) من إسم (لوهيم) العبري، لذا أعتقد أنّ اسم (اللهم) كان تعريباً لإسم (لوهيم: Elo him) الذي يرد في النص العبري للكتاب المقدس، وهو أول إسم ورد في

سفر التكوين: «في البدء خلق (إلوهيم) السموات والأرض» (الإصحاح الأول: ١)، غير أننا نجد المترجمين في الترجمات الإنكليزية الحالية يضعون إسم (God) بدلاً من إسم (Elo him)، وإسم (God) الإنكليزي يتصل بنسب مع أسماء أخرى ضمن اللغات الأوربية المجاورة فهو في الألمانية (Gott)، وفي النرويجية القديمة (goth, Goth).

كما يستخدم المترجمون إسم (الله) بدلاً من إسم (إلوهيم) في الترجمات العربية أيضاً. وإلوهيم: تعني (الخالق): (The Creator)، وتعني (الديان): (The Judge)، ويطلق على الذين يعبدون هذا الإله (Elo him)، ويكثر إسم (إلوهيم) في الأسفار الستة الأولى من العهد القديم (Webster: 633)، ومع هذا فهو ليس إسماً عبرياً صرفاً فقد كان الفينيقيون يستخدمونه للدلالة على الآلهة بصيغة الجمع، لكنّه مع دخوله ضمن نصّ التوراة أصبح يشير الى الإله الواحد (New Catholic Encyclopedia: 147).

وإلوهيم في العهد الجديد تشير الى (الإله الإبن)، أي أنّ الإسم كان متداولاً من قبل اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية، وهو الذي سهّل عملية تعريبه.

وقد ذكر الفراء أنّ معنى اللّهم: (يا الله أم بخير)، ومع هذا فقد أنشد قطرب:
إني إذا ما مطعم ألمّا أقول: يا اللّهم يا اللّهما
(اللسان: مادة ألّه)

أو كما ورد أيضاً:

وما عليك أن تقولني كلّما سبّحت أو صليت يا اللّهم ما
أردد علينا شيخنا مُسلّماً

(خزاة الأدب: ٢ / ٢٩٧)

وكلا النموذجين قد أدخل فيه (ياء) المنادي على (اللهم) مشيراً الى كونه اسم علم.

هذا وقد ورد إسم (اللهم) على السنة الجيل الأول من الأحناف قبل الإسلام مثل زيد بن عمرو بن نفيل:

«أنفي لك اللهم عانِ راغمُ مهما تجشمني فلأني جاشمُ»
(ابن هشام: ١ / ٢٤٥، ٢٤٢)

ومثل أمية بن أبي الصلت أيضاً:

«إن تغفر اللهم تغفر جها»

(الديوان: ١٦)

وكان محمد بن عبد الله يستخدم إسم (اللهم) في الدعاء ولا يستخدم إسم (الله)، فعلى سبيل المثال ما جاء في دعائه على قريش يوم غزوة بدر: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادك وتُكذِّب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم إرحمهم الغداة» (المغازي: ٧٧).

أريد القول هنا أنَّ العرب كانت تذكر اسم (اللهم) باعتباره إلهاً مجرداً دون أن تعني به (الله)، وبقيت على هذه الرتبة من الوعي الى أن توصل أحد أقطاب الجيل الأول من الأحناف بدافع من تجربته الذاتية الى نحت اسم (الله)، والقول بهذا يجعلنا ننظر الى سورتي (الحمد) و(الخلق) اللتين تردان في مصحف أبي بن كعب كسورتين من سور القرآن، أقول إنهما كانتا نتاجاً للمرحلة التاريخية التي كان اسم (اللهم) يمثل أعلى رتبة للوعي الحنيفي، من هنا نجد أنَّ نصَّ سورة (الحمد) يبدأ بالقول: «اللهم إياك نعبد»، بينما يبدأ نصَّ سورة (الخلق) بقولهم: «اللهم إنا نستعينك» (انظر الملحق رقم ٢) أي أنَّ السورتين نتاج مرحلة ما قبل البعثة المحمدية.

وقد شكك (نولدكه) بنسبة السورتين الى الوحي لكن من وجهة نظر أخرى وهي أنّهما غير مسبقتين بكلمة «قل» كما في المعوذتين مثلاً (تاريخ القرآن: ٢٦٧)، وهو رأي لا يمكن الإتياء على منطقيته، لأنّ إضافة كلمة «قل» لا تجعل النصّ موحىً به، بقدر ما تجعله نصّاً مُلقّناً، فالنصوص التي تبدأ بكلمة «قل» تشير الى وجود مُعلّم ليس إلا.

وقد كان كلُّ من نصّ سورة (الحفد) ونصّ سورة (الخلع) نصّين معروفين يتداولهما الأحناف عند التعلّد والصلاة، ولم تكن آية ﴿يَسْمِعُ أَقْرَ الْكَلِمِ الْأَرِجِ﴾ ضمن أيّ منهما بدءاً، لكنّها أُضيفت الى النصّين على يد أبي بن كعب لاحقاً أثناء تدوينه المصحف.

وترد - الآن - كلمة (اللهم) في اللهجة العراقية الدارجة مفرغة من عمقها الديني، وتكاد تأخذ دلالة تأكيد الاستثناء، أي تأكيد (إلا)، كإن تقول: «سأفعل هذا الشيء اللهم إلا إذا حدث كذا». أي أن الاسم الذي كان يشير الى الإله، أو الى الله فيما بعد، أصبح الآن أداة لتأكيد الاستثناء ليس الا!

٣ - لاَهُمْ:

يقول ابن منظور: «ثم أنّ العرب لما سمعوا (اللهم) جرت في كلام الخلق توقّموا أنّه إذا أُلقيت الألف واللام من الله كان الباقي (لاه)، فقالوا (لاَهُمْ) (اللسان: مادة أله)، أقول أنّ مشكلة ابن منظور تكمن في أنّه يتحدّث عن جريان إسم (اللهم) في اللسان العربي، لكن من اعتقادٍ مسبقٍ بأنّ القوم كانوا يعرفون إسم (الله) قبل ذلك، وهو ما سأحاول دحضه هنا، وإثبات نقيضه تماماً.

لقد إحتاج العقل العربي الى فترات زمنية من التجريب الروحي إستغرقت المرحلة البحثية الأولى للجيل الأول من الأحناف وعلاقتهم مع الأديان

التوحيدية الأخرى، تآرجحت هذه المرحلة بين التقليد ابتداءً وبين الانفصال التدريجي مع بداية امتلاك إجتهد خاص، وقد تَمَّ تَبَيُّنُ إسم (اللهم) من قَبْلُ الأحناف كبداية أولى لخلو اللغة العربية حينذاك من إسم يشير الى إله واحد غير مجسّد، غير أنهم مع الوقت بدأوا يتحتسّون إنفصالهم عن الأديان التوحيدية الأخرى، وبدأت تجاربهم الروحية تأخذ من العمق ووضوح الإختلاف على الصعيد الاجتماعي وليس الفكري فقط، الأمر الذي تطلّب إنتاج إسم عربي خالص يمثّل تجربتهم الروحية الخالصة، وقد حدث كلّ ذلك بعد أن جرى اسم (اللهم) ضمن القاموس الحياتي اليومي، فتداولوه بدءاً، وقالوا (لاهم) أيضاً، وقالوا (الإله)، ثم قالوا (الله).

هذا وقد ورد إسم (لاهم) على لسان عبد المطلب بن هاشم في حادثة الفيل:

«لاهم إنَّ العبد يمنع جِلَّه فامنع جِلالك»

كما ورد على لسان زيد بن عمرو بن نفيل حين ضربه سفهاء مكة وحرموه من زيارة الكعبة:

«لاهم إنِّي مُحرَّمٌ لا جِلَّه»

«ابن هشام: ١ / ٢٤٦»

كذلك ورد على لسان عكرمة بن عامر بن هاشم في هجائه للأسود بن مقصود قبل الإسلام (ابن هشام: ١ / ٥٢ - ٥٣)، كما ورد على لسان أبي عزة الشاعر وكان أبرصاً، «وكانت قريش قد أخرجته من مكة مخافة العدوى، فكان يكون بالليل في شعف الجبال، وبالنهار يستظل في الشجر، وسقى بطنه فأخذ مدية فوجأ بها معدة فسال ذلك الماء فبرأ برصه ورجع الى مكة فقال:

لاهم ربِّ وائل ونهد والبيعملات والخيول الجرد

ورب من يسمى بأرض نجد أصبحت عبداً لك وابن عبد
أبرأت مني برصاً بجلد من بعد ما طعنت في معدي،
(المحبر: ٣٠١)

وقد تقصّدت من ذكر قصّة أبي عزة الشاعر وشعره كاملين كما رواهما ابن
حبيب البغدادي لما فيهما من دلالة واضحة على الإنتشار الجغرافي لاستخدام
إسم (لاه) في الحجاز ونجد أيضاً، رغم سكوت الخبر عن ذكر من كان هناك
على رؤوس الجبال المحيطة بمكة، من الأحناف والمتألهين، وكانت مأوى
لبعضهم.

وإذا عدنا الى إسم (إلوهيم) نجد أنّه جمع لإسم (إلوه: Eloah) العبرية،
وهي (إله: Elah) في الآرامية، كما هي (إله: Ilah) في العربية، وهي تختلف
عن (الله: Allah).

وأريد أن أركّز الإنتباه هنا الى قول زيد بن عمرو بن نفيل:
«رضيت بك اللهم ربّاً ولا أرى أدين لإلهاً غيرك الله ثانياً»
أقول: نجد في هذا البيت من الشعر خلاصة جدلي عميق لتجربة روحية فذة،
تم رفضها من قبل قريش، وطرده صاحبها من مكة الى جبل حراء بعد أن ضربه
سفاهاً.

فالبيت يشير صراحة الى أنّ اسم (اللهم) = إسم (الله)، وأنّه يعنيه تعاماً، وأنّ
الله إله واحد، وأنّ اسمه بصيغة المفرد أيضاً، كما أنّه نحت عربي خالص، كلّ
هذه الإضافات ستساهم كثيراً في عملية تكريس الإسم لاحقاً.

لا أريد أن أقول أنّ زيد بن عمرو بن نفيل هو من قام بنحت إسم (الله)،
لكن، تجربته الروحية، إضافة إلى محنته الإجتماعية هي التي كرّست الإسم
بشكل نهائي بين أحناف الحجاز (مكة/ الطائف/ يثرب) قبل أن يعلن محمد بن
عبد الله نبوته.

٤ - الإله :

ويبدو لي أنّ الوصول الى اسم (الله) كان مسبقاً بمرحلة معرفية أخرى، فقد كانوا يعرفون كلمة (إله) ويقولون (الإله)، وأرى أنه إسم علم لا علاقة له باسم الله، وقول ابن الحفيد بأنّ «الإله المعروف ليس علماً بل العلم لفظ الله بحذف الهمزة» (الدر النضيد: ١١٨) هو قراءة إسلامية لاحقة بعد أن تمّ إدغام اسم الإله باعتباره الله.

ويبدو لي أنّ اسم (الإله) يمثّل مرحلة اجتماعية بدأ فيها الاعتقاد بإله هو فوق الآلهة، لكنه بدون اسم، بدون هوية، وقولهم (الإله) محاولة منهم في تعريفه، لكنه بقي الإله (المعرفة/ النكرة)، ومع صعود هذا الاسم كانت هناك ممارسات اجتماعية جديدة قد بدأت تظهر على الصعيد الحياتي للواقع اليومي للنخبة، كما في قول النابغة الذبياني:

«قالت: أراك أخا رحلي وراحلة تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
حباك ربي فلنا لا يحل لنا لهو النساء، وإنّ الدين قد عزما
مشمريين على خوص مزممة نرجو الإله، ونرجو البرّ والطعما»
(ديوان النابغة الذبياني: ٦٢)

ومع نمو ظاهرة التحنّف بدأت هوية (الإله) تتشكّل، فهو الخالد بعد زوال الأشياء، قال ورقة بن نوفل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودي المال والولد
(نسب قریش: ٦٦)

وهو الرازق الذي لا تنفذ خزائنه:

جعل الإله طعامنا في مالنا رزقا تضمّنه لنا لن ينفدا
(ديوان الأعشى: ٧٩)

وقال عمرو بن كلثوم:

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن نضج من القتل

(الديوان: ٥٤)

وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد ورد إسم (الإله) ثمان مرات في المتبقي من شعر (الحطيئة) - الذي تتهمة المؤسسة الإسلامية برقة إسلامه - سواء في نصوصه التي قالها قبل الإسلام أو بعده، وهي إشارة واضحة على سهولة جريان هذا الإسم على لسانه، مثلما نرى سهولة جريان اسم الرحمن على لسان (الراعي النميري) في العصر الأموي، وهي إشارة الى تبني الإسم كاعتقاد، يمثل اسم (الله) فيها إضافة لاحقة تمت بفعل سيادة الإسلام كممثل أوحد لكل أطراف الحنفية عند العرب.

٥ - الخلاصة

يمكننا القول هنا أن إسم (الله) هو نحت عربي خالص، وآته جاء نتيجة لتجربة حنيفة خالصة، بدأت هذه التجربة على يد أحد أقطاب الجيل الأول من الأحناف، دون أن نتمكن من تحديد هويته الشخصية، إلا أن تلامذته أرادوا أن يكرسوا انفصالهم عن الأديان السماوية الأخرى فعملوا على تبنيها وإدخالها ضمن القاموس الحياتي اليومي، وبما أن نحت اسم (الله) تأخر كثيرا، فإن الأسماء المجاورة كاللهم والإله، لم تكن تشير اليه لكنها تشير الى وعي التجربة الروحية عند الذين تبنوا هذه الأسماء، وقد كان اسم (اللهم) تعريفاً لإسم إلههم، ومع نمو التجربة الحنيفية في شبه الجزيرة العربية وتحول الباحثين عن إله من مقلدين الى مجتهدين بدأت عملية إدراك أن اسم إلههم لا يمثل تجربتهم الخاصة فقد بقي هناك - داخل التسمية - ما يشير الى (إله بني إسرائيل)، أو حتى الى (الإله الإبن)، الأمر الذي دفعهم الى تجاوز ذلك بنحت

إسم (الله)، ولا أعتقد أنَّ عملية النحت كانت بعيدة عن إسم (الآهة) التي تعني الشمس، والتي تتضمن دلالة الإرتفاع، يمكن تحسُّس ذلك في سؤال محمد للجارية السوداء: أين الله؟ فقالت: في السماء. فقال لمالكها إعتقها فإنَّها مؤمنة (أمالى المرتضى: ٢ / ١٤٥).

ولأنَّ الأحناف نتاج مجتمع ذكوري فإنَّهم (ذكروا) الإسم فأصبح (الله) مذكراً، وجعلوه أعلى من أن يتشبه بأيِّ شيء، قال ورقة بن نوفل في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل:

«بدينك ربّاً ليس ربُّ كمثلِه»

التي أصبحت فيما بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١).

ويبدو ان اسم (الله) قد شاع بين الناس بفعل تأثير الجيل الأوّل من الاحناف، وذلك لثقل حضورهم الاجتماعي، وبفعل توافدهم على أسواق العرب ونشر التجربة عبر الخطابة والشعر، إلا أنَّ الإسم بدءاً كان يستخدم من قبل الناس باعتباره إله الآلهة، فقد ورد عن عيسى بن عمر أنَّ «الله إله الآلهة» (قاموس الشريعة: ١٥٩)، لأنَّهم كانوا يحلفون بالعزى مع الله كما في قول درهم بن زيد الأوسي:

«إني وربُّ العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرفُ»

(الاصنام: ١٩)

وكانوا يضعون الله فوق الآلهة كما ورد في قول أوس بن حجر:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله، إنَّ الله منهن أكبر!

(الاصنام: ١٧)

ومع الوقت، وبالتحديد مع صعود التجربة الحنيفية أصبح الله الإله الوحيد عند أقطاب الحنيفية مثل زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن الأسلت وخالد بن

سنان وأمية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى .

وإذا ما علمنا أن زهيراً كان ربيباً لأوس بن حجر فسيكون واضحاً جداً العمق الزمني لتحوّل الرؤيا في قول ابنه كعب بن زهير :

أرادوا اللات والعرزى إلهاً كفى بالله دون اللات كاف

(ديوان كعب : نسخة موقع أدب)

فثلاثة أجيال زمنياً كانت كفيلة بتوضيح معنى أن يُدار العالم من قبل إله واحد ، لقد كانوا يعرفون الله كاسم علم لإله ، لكن ليس باعتباره الإله الوحيد ، وبهذا يصبح واضحاً قول المؤرخين الإسلاميين بحنيفية البعض دون سواهم علماً أنهم جميعاً يتداولون اسم الله قياماً وقعوداً ، أقول أن الحنيفي هو الموحد ، أي الذي ينظر للعالم باعتباره نتاج إله واحد ، وأنّ العالم ليس بحاجة الى آلهة أخرى سواء ، وهذه القراءة تحسم قلق وارتباك الباحثين القدامى والجدد إزاء ورود اسم الله في النصوص المتبقية من أدب ما قبل الإسلام .

وبهذا يمكنني القول أنّ نحت اسم (الله) كان تجربة حجازية صرفة ، إستغرقت زمنياً قرابة قرنٍ ونصف من الجدل الحنيفي ، مرّت خلالها بكلّ المراحل التي تحدثنا عنها سابقاً ، ابتداءً من مرحلة (اللهم) مروراً مرحلة (الإله) حتى تمّ الوصول أخيراً الى تجربة (الله) التوحيدية الخالصة على يد زيد بن عمرو بن نفيل ، التي تبتّأها محمد بن عبد الله مع بداية دعوته ، ومن ثمّ تبلورت وتكرّست ضمن المنظومة المعرفية الاسلامية لاحقاً .

أي أن إرتباك المؤرخين الإسلاميون قديماً ، إضافة الى ارتباك الباحثين الجدد أيضاً أمام ورود أسماء (اللهم) و(الاله) و(الله) في الأدب العربي قبل الاسلام ، إنّما هو نتاج قراءة خاطئة قائمة على اعتبار ان اسم (اللهم) واسم (الاله) يشيران الى (الله) ، وقد تمّ تؤسيخ هذه القراءة بعد إنتصار الإسلام .

وقراءتي تقوم على اعتبار أنّ الأسماء (اللهم، الإله، الله) هي أسماء علم لا علاقة لبعضها ببعض، وأنّ رسوخ تجربة اسم (الله) على الصعيد الاجتماعي، هو الذي جعل اسم (الله) يطغى على الإسمين الآخرين، بل إنهما - بفعل قراءة المؤسسة الاسلامية - إندرجا تحت إبطه كظليّين من ظلاله، وتدرّجياً فقد انحسر استخدام اسم (الاله)، بينما إقتصّر استخدام إسم (اللهم) على الدعاء.

ج - الانتشار الجغرافي لعبادة الله في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام
قلت أنّه في البدء لم يكن لاسم (اللهم) واسم (الاله) علاقة باسم (الله)، ولهذا فإنّ انتشارهما لا يدخل ضمن انتشار عبادة الله في شبه الجزيرة قبل الاسلام، لذا علينا أن نكون يقظين تماما من الوقوع في التعميم الذي سلب الأسماء خصوصياتها لاحقاً.

اعتمادا على ما بقي من أخبار تجربة الأحناف في مكة قبل الاسلام مثل تجربة زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وشيبة بن ربيعة، وأبي أمية بن المغيرة. التي لم تتوقّف على حدّ التساؤل بل بلغت حدّ الاجتهاد، فقد ثبت أن زيدا كان قطبا مركزيا ليس فقط لاحناف مكة، بل الطائف ويثرب ايضا، وعليه فإنّ اسم (الله) كان متبنّى من قبل زيد بن عمرو بن نفيل بدلالة الرب الوحيد، وليس رب الارباب أو إله الآلهة، وهو ما سيتم تبينه لاحقا عبر الاسلام.

وكما قلت فإنّ زيد بن عمرو بن نفيل كان قطبا للمثلث الجغرافي (مكة/ الطائف/ يثرب)، فإنّ بعض أحناف يثرب كان لهم باع طويل في تكريس اسم (الله) بدلالته التوحيدية قبل الاسلام، أذكر هنا تجربة أبي قيس بن الأسلت، وتجربة أبي عامر الراهب، إضافة الى تجربة سويد بن الصامت.

أما بخصوص الطائف فقد ورد من الاخبار حول تجربة أمية بن أبي الصلت



وتأثيره على أهل قريش ما يكفي الى الاشارة الى حضوره الفاعل في تكريس الحنيفية الموحدة في الطائف أيضا، وقد كان على صلة بزيد بن عمرو بن نفيل يسأله عن آخر كشوفاته المعرفية، بل ويقف أمامه قرب الكعبة يلقي عليه شعراً يقول فيه:

«كل دين يوم القيامة عند الله سوى الحنيفة زور»

التي ستكون لاحقاً: «الدين عند الله الاسلام».

ومن الأحناف الذين التصق اسم (الله) بتجربتهم الذاتية خالد بن سنان العبسي (مروج الذهب: ١ / ٦٩ - ٧٠)، أحد بني مخزوم، ولم يكن في بني اسماعيل نبي قبله (الحيوان: ٤ / ٤٧٦)، وكان على فترة قريبة من دعوة محمد بن عبد الله، وقد سأل عنه وفد عبس (الطبقات الكبرى: ١ / ٢٩٦)، حتى ان ابنة خالد بن سنان قدمت على محمد بن عبد الله «فبسط لها رداءه وقال: هذه ابنة نبي أضاعه قومه (الحيوان: ٤ / ٤٧٦)، وذكر ابن قتيبة أنها سمعته يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقالت: كان ابي يقول هذا (المعارف: ٦٢)، والرواية ذاتها في (مروج الذهب: ١ / ٧٠)».

وكان لخالد بن سنان أتباع من بني عبس، قيل أن عشرة منهم شاركوه في إطفاء نار المجوسية التي كادت ان تنتشر بين العرب، فقد ورد عن ابن حزم أن «سليط بن مالك بن زهير كان أحد العشرة الذين قاموا مع خالد في إطفاء النار» (جمهرة: ٢٥١).

إضافة الى العشائر التي ترتبط مع هذه المناطق الثلاث بصلة الدم كمزينة (تجربة زهير بن أبي سلمى)، وقيس عيلان (كتجربة لبيد)، كل ذلك يشير الى أن عبادة (الله) كانت متمركزة في الحجاز، وفي بعض مناطق تهامة مثل نجران، إنكاء على ما ورد على لسان (قس بن ساعدة الإيادي) في عكاظ.

ومما يبدو أن عبادة (الرحمن) كانت أكثر سعة في الإنتشار من عبادة (الله).
وأنها كانت تجربة حديثة العهد قياساً بتجربة عبادة الرحمن، أي أنها لا تبعد
زمنياً عن أقطاب الجيل الأول من الأحناف.

المبحث الثالث

الجذر التاريخي العميق لسورة الفاتحة

تمهيد

سيدخل هذا المبحث إضافة للمبحث الذي يليه في صلب موضوعه (تاريخ القرآن)، لأنّ المبحثين عبارة عن قراءة متخصصة في نشوء وتطور سورة (الفاتحة)، منذ لحظة تأسيس نصّها الأول قبل الاسلام، الى لحظة ثباتها كتابة كفاتحة للقرآن في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

الكتابة في موضوعه (تاريخ القرآن) حقل من حقول الكتابة في (علوم القرآن)، أي أنّها ستصب حتماً في قنوات وجداول أخرى كأسباب النزول، وأماكن وأوقات النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والقراءات، الخ من حقول علوم القرآن.

والكتابة في (تاريخ القرآن) ليست مبحثاً جديداً على كلّ حال، رغم أنّه لم يبدأ استخدام إصطلاح (تاريخ القرآن) إلا عند منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرق الالماني نولدكه، بل إنّ الكتابة في الموضوع لم تكن حقلاً قائماً بذاته كما هو الآن، ولم يذكر ابن النديم سوى كتاب المصاحف للسجستاني، وكتاب المصاحف لأبي بكر بن مقسم (الفهرست: ٧١٤)، وهناك إشارات عن (كتاب المصاحف) لابن الأنباري، وكذلك (كتاب المصاحف) لابن اشتة (مختصر في شواذ: ٤)، وهما في عداد الكتب المفقودة، وقد ذكر ابن النديم أيضاً كتاباً آخر تحت عنوان «تاريخ (آي) القرآن لتأييد كتب السلطان» لجعفر بن

أحمد المروزي، وقد وردت كلمة (آي) محصورة بين قوسين دون أن يشير محقق الكتاب الى سبب ذلك، فهل هي مُلحقة بالطبعة أم أنها كانت ساقطة من طبعة أخرى سابقة كطبعة دار المعرفة للكتاب وهي ما يشير اليها دائماً (الفهرست: ٢٤٢)، هذا وقد أورد السخاوي في كتابه (الإعلان بالتبويب لمن ذم التاريخ) جرداً بكل الكتب الإسلامية التي تناولت حقول التاريخ دون أن يشير الى وجود كتاب واحد تحت اسم (تاريخ القرآن).

مع هذا فقد كان لأئمة المسلمين في حقل تاريخ القرآن جدلاً طويلاً وعميقاً منذ اللحظات الشفاهية الأولى، ثم استمر هذا الجدل خلال عصر التدوين الإسلامي، ولا يزالون الى الآن يخوضون فيه، دون أن يصلوا الى قرار، لأنّ البدايات البحثية المتشابهة تقود الى نتائج ونهايات متشابهة أيضاً.

إنقسم المتجادلون في حقل تاريخ القرآن الى ثَقلَ وعقلانيين، فالبعض إكتفى بنقل الروايات دون قراءتها، والبعض الآخر إستخدم العقل في قراءة ما تمّ نقله، وكلا الطرفين قدّم خدمة في الحفاظ الى ما يشير الى الجذور التاريخية الحقيقية العميقة لنصوص القرآن، إن لم يكن كلّها فبعض منها، وهذا بالتأكيد فتح لنا أبواباً ونوافذ ما كان يمكن لها أن تُفتح لولا هذا الكمّ المعلوماتي اليسير الذي بقي.

أريد أن أشير هنا الى نقطة في غاية الأهمية، وهي أنّ كلّ ما كُتِبَ في حقل (علوم القرآن) إسلامياً إنطلق من مُسَلِّمة واحدة، هي أنّ القرآن كلام موحى، وهذا - من وجهة نظري - هو السبب الذي جعل الخوض في هذه الموضوعات محصوراً وضيقاً، وغير قادرٍ - في نفس الوقت - على كشف تاريخية النصّ الحقيقية.

في المقابل إعتبر المستشرقون أنّ القرآن هو كتاب محمد بن عبد الله دون فيه

إنفعالاته الحسية والذهنية، وحاولوا من خلال هذا المنظار تتبّع نشوء وصيرورة الإنفعال داخل النص القرآني (كتاب تطور القرآن التاريخي لكانون سل نموذجاً).

رؤيتي تنطلق من بداية تعلن أنّ نصوص القرآن هي إلهام تجارب (ذاتية/ إجتماعية) إبتدأت مع بداية نشوء وانتشار ظاهرة التحنّف في شبه الجزيرة العربية، وأنها نتيجة للتراكم التجريبي العام، بلغت ذروتها مع تجربة محمد بن عبد الله وصحابته داخل بنية العقل الحنيفي/ الاسلامي لاحقاً.

وهذا يتطلب إعادة قراءة كثير من المفاهيم والمصطلحات الداخلة في صلب حقل علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، فالقرآن هو خلاصة التجربة الحنيفية ككل في شبه الجزيرة العربية، وما تمّ حفظه في القرآن هو خلاصات التجارب الفردية لأقطاب الجيل الأول من الاحناف، إضافة الى قراءة إسلامية توفيقية لكلّ التكتلات التي كانت موجودة لحظة تدوين المصحف، وهذا كان - من وجهة نظري - السبب الرئيس الذي بموجبه تمّ الاتفاق عليه لاحقاً.

لقد احتوى القرآن على ما يرضي الأطراف المتصارعة كلّها، من هنا جاء خوف وتردد (علي بن ابي طالب) الخليفة الرابع حين رفض الاحتجاج بالقرآن بإعتباره حمّال أوجه.

إكتفى البعض في بحث جانب واحد من جوانب (تاريخ القرآن)، كالكتابة في تاريخ تدوين القرآن كما في كتاب (المصاحف) للسجستاني، مع إشارات مهمة جداً هنا وهناك حول نقاط الاختلاف في القراءات بين المصاحف الأولى:

١ - مصحف عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ).

٢ - مصحف علي بن أبي طالب (ت ٤٠ هـ).

٣ - مصحف أبي بن كعب (ت ٢٠ هـ).

٤ - مصحف عمر بن الخطاب (ت ٢٣ هـ).

٥ - مصحف عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ).

وتناول الواحدي النيسابوري في كتابه (أسباب النزول) الأسباب الاجتماعية التي كانت وراء عملية إنتاج بعض نصوص القرآن، فكرّس حقلاً آخر من حقول علوم القرآن، التي تساعد كثيراً في فهم آلية إنتاج النص القرآني، وتمنحه الصفة التاريخية، أي تضعه ضمن المجرى العام للأحداث.

وبالتأكيد فإنّ الكتابة في حقل (الناسخ والمنسوخ) لها من الأهمية بحيث تجعلنا قريبين جداً من نمو وصيرورة النصّ المقدس، ليس فقط في تتبّع النمو التشريعي داخل بنية العقل الاسلامي، بل ما كان وراء ذلك أيضاً من أزمات إجتماعية، كانت دافعاً أساس في نمو واتساع أفق المنظومة المعرفية الاسلامية.

وغالباً ما كان يشير المفسرون الى زمان ومكان كتابة بعض آيات القرآن، ليلا كان أم نهاراً، في مكة أم في المدينة، في سهل أم على سفح جبل، إضافة الى محاولات في ذكر تسلسل نزول سور القرآن، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه تسلسل نزول السور كما وردت في مصحف علي بن أبي طالب. هذا وقد حاول السيوطي أن يجمع أكثر ذلك في كتابه الفذّ (الإتقان في علوم القرآن)، وأستطيع القول أنّ كتاب السيوطي هذا هو أوّل موسوعة حقيقية في الكتابة في حقل (تاريخ القرآن) رغم أنّ الإصطلاح لم يرد بهذا الوضوح، فإنّ الكتاب تضمّن في النهاية أكثر أبواب هذا الحقل، بل إنّه أرضية ثرة وخصبة جداً يمكن الإنطلاق منه الى نوافذ أخرى، فتح السيوطي قسماً منها وتوقّف عند الكثير، إلا أنّ ما فتح من أبواب، مثل باب «ما تكرر نزوله من السور»، أو مثل باب «ما نزل على ألسنة الصحابة»، فيهما من الأهمية ما لا يمكن تقديره في حقل (تاريخ القرآن) لو أنّنا أتممنا الخطى ولم نتوقّف.

وقد وضع أبو عبد الله الزنجاني (ت ١٩٤١م) كتاباً تحت عنوان (تاريخ القرآن)، وأظنه أول إسلامي يستخدم هذا العنوان، وقد ألفه بعد الإطلاع على ما كتبه نولدكه تحت نفس العنوان، لم يتوقف الزنجاني في كتابه على تاريخ كتابة المصاحف كما فعل السجستاني، بل إنفتح قليلاً على ابتداء نزول القرآن، وزمان الابتداء، وعهد نزول القرآن مكياً ومدنياً، وتناول تاريخ نزول السور، ثم ترتيب سور القرآن، وخصّص فصلاً في ترتيب السور في المصاحف الأولى بعد أن أضاف إليها مصحف جعفر بن محمد الصادق (ت ١٤٢ هـ)، وترتيب السور بحسب قراءة نولدكه (مقالات: ١٢٧ - ١٢٨)، ويمكن تحسّن تأثير منهج وأسلوب نولدكه على الزنجاني، إلا أنّ الأخير إنطلق من قراءة مؤسّساتية تقول أنّ النصّ القرآني نصّاً موحيّاً به.

هذا وقد وضع (إبراهيم الإبياري) كتاباً تحت عنوان (تاريخ القرآن) سار به على نفس طريق الزنجاني، أما كتاب (تاريخ القرآن العظيم) للدكتور محمد سالم محيسن فإنه أقرب ما يكون إلى رؤية المؤسسة الرسمية لتاريخ القرآن، أي محاولة إزالة أي شيء يمكن أن يثير سؤالاً حول الأصل البعيد للنصّ.

ولعلّ كتاب علي نصوح الطاهر المعنون (أوائل السور في القرآن الكريم) محاولة جريئة مغايرة في قراءة تاريخ بعض سور القرآن، خصوصاً تلك التي تبدأ بأحرف مثل (الم، المر، الر، كهيعص، يس ن طه، ق، ن، ص، حم، طسم، حمعسق)، وهي تسع وعشرون سورة، توصّل (الطاهر) إلى أنّ فواتح السور تقوم على حساب الجمل (أوائل السور: ٣٨)، وهذا قاده إلى نتائج مهمّة حول وجود بعض آيات سور معينة داخل سور أخرى، سورة «القلم» نموذجاً (أوائل السور: ٣٢)، وخرج من محاولته الحسابية بنتيجة تنصّ على أنّ آية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمُنَاقِبِ﴾ لا يقصد بها سورة الفاتحة، بل السور التي تبدأ



بالحرفين (حم)، التي تسمى بالحواميم السبع، لأنها سبع سور طوال، وهو ما سأقف عنده قليلا في الفصل الذي سأخصّصه لأسماء سورة الفاتحة.

نضمّن كلامي السابق إشارات حول عدم إقتصار البحث في حقل تاريخ القرآن على المسلمين فقط، بل أفرد له نخب من كبار المستشرقين دراسات ذات قيمة بحثية عالية مثل كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، وهو أهم موسوعة شاملة تناولت هذا الحقل المعرفي بالبحث العلمي الحديث، أو كتاب (تدوين القرآن) لكانون سل، وقد تتبّع فيه المؤلف الإعتراضات الشيعية بخصوص مصحف عثمان بعد أن تحدّث عن عملية تدوين المصحف على يد زيد بن ثابت.

إضافة الى ذلك وضع (كانون سل) كتاباً ثانياً تحت عنوان (تطور القرآن التاريخي) تتبّع فيه النمو الإنفعالي - صعودا ونزولا - للنص في مكة والمدينة، إلا أنّ كلاً من نولدكه وكانون سل رغم دفعهما موضوع الوحي من السماء، إلا أنّهما لم يبحثا في تاريخ النصوص أبعد من الدعوة المحمدية، أي أنّ القرآن عندهما معا يبدأ تأريخيا مع إعلان محمد بن عبد الله نبوته.

ومبني هذا، والمبحث الذي يليه، وإن كنت سأعتمد فيهما معا على ما ورد في كتابات الاسلاميين والمستشرقين على حدّ سواء، فإنني لن أكرّر النتائج التي تمّ تثبيتها سابقا، مع شعوري بأنني مدين لهما في فتح نوافذ مهمة داخل قراءتي الخاصة، وعليه فإنّ ما أقوم به هنا ليس نقلياً بحثاً، لأنّ العقل يقف بكلّ جرائه ليعيد تفكيك المدوّنة التاريخية المتاحة، ومن ثمّ إعادة تركيبها وفق قراءة أخرى تتكّى على قرائن لها حظّ عالٍ من المنطقية، وهي كثيرة مبثوثة هنا وهناك تمنح القراءة عقلانيّتها، وبالتالي ريادتها، رغم أنّها كانت طيلة القرون السابقة دفيّة، أو كامنة داخل المتبقي من التاريخ الذي تمّ تهريبه.

الفصل الأول:

الصيغة النهائية للنص

للوصول الى صورة تقريبية لسورة (الفاتحة) في لحظة التجلي الأولى لها ينبغي علينا الا نكتفي بقراءة النص كما هو مدون ومثبت في مصحف عثمان، لأن النص هنا يتجسد بصورته النهائية، أي أن النص هنا قد دُون وفق آخر صيغة تم الإتفاق عليها.

وكما قلت سابقاً، فأنا هنا أضع الشمس خلفي، وأتجه خلف البحث الى عمق المجرة، أي أن قراءتي تبدأ من القرآن كما هو في مصحف عثمان، ثم تتجه الى ما بقي من قراءات المصاحف الأخرى.

ولن أكتفي بذلك، بل سألجأ الى الكتب المتخصصة في حقل (علوم القرآن)، وما يمكن أن تمنح القراءة من مفاتيح جانبية، لها القدرة على فتح أبواب أخرى، تمتد الى مديات خارج النص القرآني، بل تجعلني ألجأ الى التجربة الاجتماعية والثقافية للنص.

إذن ما سأفعله هنا هو تدوين النص كما مُثِّبَت في مصحف عثمان كخط، مبتدئاً بذكر إسم السورة الرسمي، إضافة الى تثبيت أرقام الآيات.

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

قراءة أولى سريعة

نجد في مصحف عثمان أنَّ سورة (الفاتحة) هي أول سورة فيه من حيث ترتيب السور، وكما هو واضح هنا أنَّ اسم السورة رسمياً هو (الفاتحة)، وأنَّ عدد آياتها سبع آيات، وأنَّ آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جزء من السورة، لذا فهي الآية رقم (١) فيها، وهي ميزة تميز بها سورة الفاتحة عن بقية سور القرآن جميعاً.

ومن ناحية رسم الكلمات نجد أنَّ السورة محذوف منها حرف الألف في خمسة كلمات هي (بِاسْمِ، الرحمان، العالمين، مالك، الصراط)، تكررت الرحمان لمرتين كذلك كلمة صراط، وبهذا يكون الحذف قد وقع سبع مرّات.

يقول ابن وثيق الأندلسي: إتفقت المصاحف على كتابة (مالك) بغير ألف، وكتب في بعض المصاحف القديمة الصراط بحذف الألف والأشهر الإثبات.

وإتفقت المصاحف على كتابة الصراط بالصاد (الجامع لما يحتاج اليه : ٨٧).
وقد جاءت الفاتحة باعتبارها السورة الأولى حسب الترتيب في مصحف أبي
بن كعب، وتحمل اسم (فاتحة الكتاب) (مقالات : ٩٢)، بينما جاءت السادسة
حسب الترتيب في مصحف عبد الله بن عباس، وبإسم (الفاتحة) (مقالات :
١٠١)، وهو ما إعتمده (موير) في ترتيبه لتسلسل سور القرآن، بينما جعلها
نولده تحمل الرقم (٤٨) حسب ترتيبه لتسلسل سور القرآن (تطور القرآن
التاريخي : ١٣٩)، ولم يكتبها عبد الله بن مسعود في مصحفه، وكان يراها
ليست من القرآن (مقالات : ٩٩). إضافة الى ذلك، لم أعثر على ذكر السورة
في مصحفي علي بن أبي طالب وجعفر الصادق، دون أن تكون ثمة إشارة
لاختفائها! علماً أنّ علي بن أبي طالب كان يرى أنّها الأولى نزولاً (أسباب
الزول : ١٠).

الفصل الثاني:

أسماء سورة الفاتحة

من الممكن أن يتضمّن اسم السورة مفتاحاً لتاريخ كتابتها، أو لسبب إنتاجها على صعيد الوعي الإجتماعي للأحناف، فإذا ما عرفنا أنّ لسورة الفاتحة أكثر من اسم، بل هي السورة الوحيدة التي تجاوز عدد أسمائها العشرين إسماً (جدل التنزيل: ١٤)، توجب علينا، من أجل الوصول الى قراءة مقاربة للحظة إنتاجها أن نتوقف قليلاً عند أسمائها، وما يمكن إستنباطه منها.

سأتكّيه هنا على ما جمعه السيوطي في كتابه (الانقاف/ ١: ٥٢ - ٥٣) من أسماء تخصّ سورة الفاتحة، حيث ذكر أنّ لها خمسة وعشرين إسماً، هي على التوالي:

١ - فاتحة الكتاب، قال ابن كثير: «يقال لها الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة وفي الصلاة» (تفسير القرآن العظيم: ٥٤)، وقوله خطأ يعني كتابةً. ورد في حديث نبوي: «كلّ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، والذي بعثني بالحق نبياً: ما في التوراة، ولا في الانجيل الكريم، ولا في الزبور، ولا في القرآن العظيم مثلها، وإنّها للسبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» (الاعتصام: ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧).

٢ - فاتحة القرآن.

٣ - أم الكتاب .

٤ - أم القرآن: ورد في الحديث: «إذا قرأتم الحمد فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني»، ونقلًا عن الماوردي: «سميت بذلك لتقدمها، ولتاخر ما سواها تبعاً لها، لأنها أمته، أي تقدمته، ولهذا يقال لراية الحرب: (أم) لتقدمها، واتباع الجيش لها، كما يقال لمكة: (أم القرى) لتقدمها على سائر القرى» (تاريخ القرآن الكريم: ٨١)، وقيل: «أم الشيء أصله، وهي أصل القرآن، لأنطوائها على جميع أغراض القرآن، وما فيه من العلوم والحكم» (تاريخ القرآن الكريم: ٨٢).

٥ - القرآن العظيم: سميت بذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن.

٦ - السبع المثاني: لأنها سبع آيات. وقيل فيها سبعة آداب، في كل آية أدب. وقيل: أن سبب تسميتها بالسبع المثاني لأنها نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ويقول الدكتور محمد سالم محيسن: لعلها سميت بذلك لاشتمالها على أصول المعاني التي في القرآن الكريم (تاريخ القرآن الكريم: ٨٢ - ٨٣)، بينما يعتبر علي نصوح الطاهر أن هذا الاسم لا يصلح أن يُطلق على سورة الفاتحة فهو «لا يرى هناك مجالاً للإمتنان بالفاتحة ووضعها في كفة وحدها ووضع القرآن العظيم في كفة أخرى» (أوائل السور: ٤)، وبالإتكاء على آية ثانية: «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم»، فإنّ علي نصوح الطاهر يرى أنّ المثاني تشير الى سور (الحواميم)، وهي سبعة (غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف)، لأنها بحسب رأيه «أكثر سور القرآن إحتواء للوعد والوعيد والعذاب والنار، وذلك بخلاف فاتحة الكتاب التي تشعر آياتها بالضراعة والهدوء والسكينة» (أوائل السور: ٥).

٧ - الوافية: لأنها وافية بما في القرآن من المعاني.

٨ - الكنز.

٩ - الكافية: لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها.

١٠ - الأساس: لأنها أصل القرآن، وأول سورة فيه.

١١ - النور.

١٢ - سورة الحمد: كما في الحديث السابق «إذا قرأت الحمد».

١٣ - سورة الشكر.

١٤ - سورة الحمد الأولى.

١٥ - سورة الحمد القصوى.

١٦ - الراقية.

١٧ - الشفاء.

١٨ - الشافية.

١٩ - سورة الصلاة: لتوقف الصلاة عليها. قال ابن كثير: يقال لها:

الصلاة، لأنها شرط فيها (تفسير القرآن العظيم: ٥٤)، بل ورد في الحديث «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» (الدر النضيد: ١٩٨).

٢٠ - لازمة: لأنها من لوازم الصلاة.

٢١ - سورة الدعاء.

٢٢ - سورة السؤال.

٢٣ - سورة تعليم المسئلة: لأن فيها آداب السؤال، لأنها ابتدأت بالثناء قبله.

٢٤ - سورة المناجاة: لأن العبد يناجي فيها ربه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٢٥ - سورة التفويض: وذلك لاشتغالها عليه في قوله: ﴿وإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾.

لا أريد هنا أن أتوقف عند كل اسم من أسماء الفاتحة، رغم أنني سأتناول الأسماء جميعاً عبر البحث ككل، لكنني هنا أحب أن أتوقف عند كل من الأسماء التالية :-

١ - سورة الصلاة

٢ - اللازمة

٣ - الدعاء

٤ - المناجاة

٥ - التفويض

فالإشارات الواردة عند السيوطي كتفسير أو كشرح لهذه الأسماء تكشف جزءاً من هوية السورة، وتكشف أيضاً اختلافها عن باقي السور الأخرى، فهي (دعاء، مناجاة، تفويض)، أي أنّ بنية واتّجاه الخطاب فيها ينطلق من الأسفل بإتّجاه الأعلى، من الفرد بإتّجاه الربّ أو الإله، وهو عكس بنية واتّجاه الخطاب في سور القرآن الأخرى، حيث يكون إتّجاه الخطاب فيها موجّهاً من الأعلى الى الأسفل، أي أنّ الخطاب موجّه من الإله الى الفرد، أو من المعلّم الى التلميذ.

وهذا الأمر هو الذي دفع (نولدكه) الى تبني كونها ليست من القرآن (تاريخ القرآن: ٢٦٧) - سأناقش هذا الرأي لاحقاً - أي أنّ خلو النصّ من كلمة «قل» أخرجها من كونها نتاج إلهي، وأنها كانت دعاء ولم تكن تبليغاً. وفيها يبدو الفرد في حالة (تسليم) مطلق للإله، ولهذا السبب أطلق عليها اسم (التفويض). وكونها (دعاء، مناجاة، تفويض) إرتبطت منذ البدء بأول ممارسة طقسية، وهي الصلاة، فكانت جزءاً لا يتجزأ من الصلاة فهي اللازمة والوافية، وكلّ صلاة بغيرها فهي (خداج) كما في الحديث النبوي (الاعتصام: ١ / ٣٦٦ -



٣٦٧)، أي أنّ الصلاة لا تتمّ بغيرها، بل أنّ تركها يفسد الصلاة بحسب المذهب الشافعي (الدر النضيد: ١١٦)، ولهذا تمّ تسميتها باللازمة.

والقول بحديث: «كُلُّ صلاة بغيرها فهي خداج» يشير ضمناً الى أنّ السورة كانت مع البداية الأولى للصلاة، والصلاة لغة تعني الدعاء، والسورة تتضمن الدعاء حتى قيل فيها أنّها سورة (الدعاء)، أي أنّ السورة كانت مقروءة منذ البداية الأولى، وهذا يؤكد قدمها، لكنّه في نفس الوقت لا يحدّد مدى قِدَمها، وهذا يتطلّب البحث في (تاريخ الصلاة)، ليس إسلامياً فقط، بل تاريخ صلاة الأحناف في مكة قبل الدعوة المحمدية، فقد كانت قريش بكلّ أطيافها (أحناف، دهرين، وثنيين) تصلّي صلاة الضحى دون أن يعترض أحدٌ على ذلك، حتى بدأ زيد بن عمرو بن نفيل يصلي صلاة الزوال، فأصبح الأحناف - أو الذين تأثروا بزيد - يصلّون صلاتين يومياً، وقد ذكر ابن عساكر عن حجر بن أبي إهاب قال: «رأيت زيدا بعدما رجع من الشام يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل القبلة فصلّى ركعة وسجدة، ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبدُ حجراً، ولا أصلّي له، ولا أكل ما ذُبِح له، ولا أستقسمُ بالأزلام، وأنا أصلّي لهذا البيت حتى أموت» (تهذيب: ٦ / ٣٣)، واستمرت الصلاة على هذا الحال مع المسلمين الى السنة الثامنة للدعوة، حين تمّ زيادة ثلاث صلواتٍ أخرى لتصبح خمس صلواتٍ يومياً.

لكنني في هذه اللحظة سأكتفي بالقول بقدّم (سورة الفاتحة) باعتبارها خطوة أولى باتجاه الوصول الى قراءة مغايرة.



الفصل الثالث:

جدل البداية الأولى

أ - تمهيد

لعلّ سورة الفاتحة هي أكثر سور القرآن إثارة للجدل، منذ لحظة تدوين المصاحف الأولى ولحدّ الآن، وقد تناول الجدل زمان ولادتها، ومكانه أيضاً، فكان هناك إختلاف طويل حولها، قال البعض أنّها كانت الأولى نزولاً، وقال البعض بتكرّر نزولها في مكة والمدينة، ولم يكتف البعض بتكرّر نزولها، بل قال بأنّها نزلت على نصفين، نزل نصفها في مكة، ونزل النصف الآخر في المدينة. وكان هناك من الصحابة من قال بأنّها ليست من القرآن أصلاً، وكان يحذفها حيث وجدها مكتوبة في المصحف.

أريد أن أقول هنا، أنّ ما سأقوم به في هذا المبحث، والمبحث الذي يليه هو محاولة في أن أضع الجدل على الطريق الذي يؤدي الى قراءة أخرى، وأن أبين في نفس الوقت كيف يمكن لنصّ واحد أن يكون شاهداً على أقول عبادة، وقيام أخرى.

ب - عقبة أولى

لن تكون عملية الوصول الى حقيقة مختلفة أمراً سهلاً، وسيكون دائماً ثمة ما

يقف عقبة أمام التحرك هنا أو هناك، غير أنّ هذا لا يعني عدم القدرة على التحرك، سنحتاج فقط الى عقل بمجسات متحسّسة، يمكنها أن تنتبه وتلتقط الإشارات الخفية، التي تتضمنها المعلومات المتاحة عن طريق المؤسسة الإسلامية بكلّ أطيافها.

وصلت في كتابي (مسلمة الحنفي: ٩١ - ١٠٤) الى أنّ تحالفا قد تمّ بين محمد بن عبد الله ومسلمة الحنفي قرب السنة الثامنة للبعثة في مكة، أدى هذا التحالف الى إعلان تشابه وتساوي إلهين حنيفين، كانا في البدء يعبدان من قبل أطياف الجيل الأوّل من الأحناف كإلهين مستقلّين، فقد كان مسلمة الحنفي يدعو الى عبادة (الرحمن) في اليمامة، بينما كان محمد بن عبد الله يدعو الى عبادة (الله) في مكة، وكان كلّ إله منهما لا يشير الى الآخر، ولا يمتّ له بصلة، ونتيجة لتحالف مسلمة الحنفي مع محمد بن عبد الله أصبح (الله = الرحمن)، أي تمّ إعلان مساواة الإلهين لبعضهما البعض، وإنهما يلتقيان في مجرى أخلاقي واحد، كما في الآية ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

الا أنّ هذا الكشف يتضارب مع تاريخ سورة (الفاتحة) التي جاءت على لسان بعض الصحابة بأنّها كانت الأولى في النزول، بل لأنّها أول سور القرآن نزولا - بحسب أكثر المفسرين - فقد دُوّنت الأولى في مصحف عثمان، علما أنّها تشتمل على ذكر اسم (الرحمن) مرتين، وهذا يعني أنّنا سنكون أمام إحتمالين: الإحتمال الأوّل: إما أن يكون كشفنا للتحالف بين مسلمة ومحمد لا أساس له.

الإحتمال الثاني: أن تكون صيغة النصّ الأولى مختلفة عن ما هو موجود الآن في مصحف عثمان، أي أن تخلو سورة الفاتحة من ذكر الرحمن.

ج - أسئلة تقود البحث

للخروج من كل هذه الإشكالات، وللوصول الى قراءة أكثر منطقية تمتلك إجابة تحسم كل هذا الجدل، يستوجب الأمر إعادة قراءة تاريخ إنتاج السورة، والبحث في عمقها الاجتماعي زمانا ومكانا.

وبالتأكيد فإن اتجاه الأسئلة يقود الى إجابة خاصة بعينها، لذا كان علينا منذ البدء، ولأجل الوصول الى نوافذ أكثر إتساعا، أقول كان علينا منذ البدء أن نكون منفتحين في طرح الأسئلة، وألا نتردد في طرح ما يمكن أن يقودنا اليه البحث من نتائج، قد تتقاطع مع الرؤية المؤسسية لصيغة وتاريخ النص بشكل كامل.

بدءاً، واتكاء على الإشكالات التي دارت حول هوية السورة، وطريقة تشكّلها، يمكننا أن نطرح الأسئلة التالية والتي ستفرش أرضية البحث بأكمله: - هل كانت عملية إنتاج سورة الفاتحة على مرحلة واحدة أم على عدة مراحل؟

وإن كانت قد تَمّت على مرحلة واحدة فما الذي يستوجب إعادة إنتاجها؟

أما إذا كانت عملية إنتاجها قد تَمّت على مراحل متعددة فما هي الأسباب الاجتماعية وراء ذلك؟

وفي حالة إثبات أنّ عملية إنتاجها قد تَمّت على عدة مراحل، فهل بإمكاننا الوصول الى صيغتها الأولى، أي قبل أن تأخذ صيغتها النهائية كما هي في مصحف عثمان؟

وفي حالة الوصول الى الصيغة الأولى للسورة، فهل يمكن اعتبار النص النهائي ناسخاً له؟

هذه الأسئلة تعيد الى النصّ حالته الجنينية، تجعلنا نقف هناك، حينما كان

النصّ لا يزال على قيد التشكّل، لم يصل بعد الى مرحلة تثبيت السمات النهائية، وما سنقوم به هو متابعة تشكّل الجنين بحيادية قدر ما يمكن، أقول مع هذه الأسئلة أضع النصّ على منصّة التشريح، كما يضع الفلكيون الكون تحت مشارطهم، وأبدأ رحلة البحث.

الفصل الرابع:

الفاتحة أول السور نزولا

أكثر تفاسير القرآن أشارت إلى كون سورة (الفاتحة) أول نصّ نزل (جامع البيان: ١ / ٥١)، وقد حاول السيد محمد رشيد رضا في (تفسير المنار) أن يؤكد أنّ الفاتحة أول سورة نزلت متكثا في ذلك على قول الإمام علي بن أبي طالب قائلا: «وهو أعلم بهذا من غيره، لآته تربى في حجر النبي ﷺ، وأول من آمن به» (مج ١ - ٢: ٥٥).

بينما يورد الواحدي رواية أخرى تؤكد أنّ سورة الفاتحة كانت الأولى قال: «إن رسول الله ﷺ، كان إذا برز سمع مناديا يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت إنطلق هاربا، فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك. قال: فلما برز سمع النداء: يا محمد، فقال: لبيك. قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله. ثم قال: قل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. حتى فرغ من فاتحة الكتاب» (أسباب النزول: ٩ - ١٠).

وذكر صاحب (الإتقان) نقلا عن الكشاف: «ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنّ أول سورة نزلت إقرأ، وأكثر المفسرين إلى أنّ أول سورة نزلت فاتحة الكتاب» (١ / ٢٤).

ثمّ يورد نقلاً عن البيهقي في الدلائل والواحدى عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل «إنّ رسول الله ﷺ، قال لخديجة أنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً». فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدّي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلمّا دخل أبو بكر، ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: إذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصّاً عليه. فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد. فأنطلق هارباً في الأفق. فقال: لا تفعل، إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول، ثمّ إئتني فاخبرني. فلمّا خلا ناداه: يا محمد، قل (بسم الله الرحمن الرحيم)، الحمد لله رب العالمين، حتى بلغ ولا الضالين. الحديث هذا مرسل رجاله ثقات (١/ ٢٤).

وفي (الإنقان) إنها سُميت بالفاتحة «لأنّها أوّل سورة نزلت، وقيل بأنّها أوّل سورة كتبت في اللوح المحفوظ، حكاه المرسى» (١/ ٥٢). وكانت تسمى «الأساس لأنّها أصل القرآن، وأوّل سورة فيه» (١/ ٥٣).

وبالتأكيد فإنّ القول بذلك يتقاطع مع الرواية المؤسّساتية المتّبعة، بإعتبار سورة (اقرأ) كانت الأولى نزولاً، وبالتالي تتقاطع مع الحكاية المتّبعة حول خلوة محمد بن عبد الله في غار حراء، ونزول الملك، وقوله لمحمد: اقرأ. وأنا هنا لا أريد الخوض في مصداقية قصة الغار أو اختلافها للتأكيد على مسألة «أمية النبي بمعنى جهل القراءة والكتابة» على حدّ تعبير هشام جعيط (الوحي والقرآن والنبوة: ٣٥).

لكنني أحب أن أشير هنا إلى أنّ التقاطعات في الأخبار الواردة حول البداية الأولى يمكن أن تكون نافذة مهمة لإعادة قراءة التاريخ الإسلامي بأكمله.

وقد أثبتّ هنا بعض الروايات التي قالت بأسبقية سورة الفاتحة، وكلّ ما أريد

التنبية إليه هو أنّ الكثير من المفسرين قالوا بتقديمها، فهي إذن من النصوص الأولى القديمة، وأنها من السور الأساس، والأساس لغة هو أصل البناء ومبتدؤه (اللسان: مادة أسس) وهو ما يتأسس عليه لاحقاً.

وأنا هنا أريد أن أفتح نافذة البحث الى مدى أكثر عمقاً من تاريخ الدعوة المحمدية، فالقول بتقديمها، وبأنهم كانوا يسمونها (الأساس)، يتضمن قراءة لا تتوقف زمناً عند بداية الدعوة المحمدية، بل الى ما قبلها، وأقصد تاريخ الجيل الأول من الأحناف.

والسؤال الذي ينتصب هنا هو: ما هي القرائن التي يمكن أن تكون نافذة لقراءة لا تتوقف عند بداية الدعوة المحمدية، بل تتجاوزها، محاولة في الوصول الى بدايات أخرى، تم نسيانها أو تناسيها؟

الفصل الخامس:

موقف عبد الله بن مسعود من سورة الفاتحة

يمكن إعتبار عبد الله بن مسعود أحد أهم مفاتيح قراءة تاريخ سورة الفاتحة، فبالإنكاء على سيرته الذاتية كشخص مواكب للإسلام منذ بداياته الأولى، ولإقترابه من شخص محمد بن عبد الله تحديداً حتى سُمّي بصاحب نعلي النبي (مروج الذهب: ١ / ٧)، إضافة الى قراءته الخاصة لنصوص القرآن بشكل عام، وموقفه وقراءته الخاصة لسورة الفاتحة بشكل خاص، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة (الأوائل للحراني: ٨٣)، كما أنّ قتله أبا الحكم بن هشام - الذي يُسمّيه المسلمون بأبي جهل - في غزوة بدر، كذلك حضوره عملية دفن فاطمة بنت محمد بن عبد الله التي تمّت بطريقة سرّية دون علم الخليفة أبي بكر، إضافةً الى دفنه أبا ذر الغفاري بيده، كلّ هذه الأحداث جعلته رجلاً إشكالياً في عين المؤسسة الإسلامية.

أما من حيث رتبته العلمية فقد عدّه (ابن المرتضى) أحد رجال الطبقة الأولى للمعتزلة، الى جانب الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت (باب ذكر المعتزلة: ٧).



كل هذه السمات تجعل منه مفتاحاً مهماً لإنغلاقات ما كان يمكن لي أن أتجرأ على البحث والخوض فيها لولا ما بقي من سيرته الذاتية، وما بقي من قراءته .

أ - إسمه ونسبه

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمع بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وأم عبد الله بن مسعود: أم عبد، من المهاجرات الأول (جمهرة أنساب العرب: ١٩٧)، وكان يرعى الغنم على جبال مكة .

ب - إسلامه

يُعدّ ابن مسعود من أوائل المسلمين دخولا في الإسلام، فقد ورد أنّه «أسلم قديماً»، كما أخرج البغوي عنه أنّه قال: «لقد رأيتني سادس ستة، وما على الأرض مسلم غيرنا» .

ويبدو أنّه كان على اطلاع بالأديان السابقة، أو على اطلاع بتاريخ الأحناف في مكة، فقد ورد أنّ محمد بن عبد الله قال له في أول الإسلام: «إنك لغلام معلّم» (مروج الذهب: ١ / ٧)، والغلام تعني: «من حين يولد الى أن يشيب» (اللسان: مادة غلم)، ويبدو أنّه كان دون سن العشرين .

وجاء في خير آخر أنّ إسلامه كان قديماً «في أول الإسلام حين أسلم سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» (هامش ابن هشام: ١ / ٢٧٢)، ولهذه المعلومة دلالة قيمة في فهم واستيعاب قول محمد: «إنك غلام معلّم»، سأتوقف عندها لاحقاً .

ج - مصحفه وعلمه

وكان لعبد الله بن مسعود مصحف خاص، وقراءة خاصة، حتى قيل مصحف عبد الله بن مسعود، وقيل قراءة عبد الله بن مسعود .

ورد عن محمد بن عبد الله أنه قال في قراءة ابن مسعود: «من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» (المصاحف: ١٥٣). بل أنّ محمداً طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فأجابه: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري» (كتاب فضائل القرآن: ٢٦٢).

وفي الأخبار أنهم سألوا علي بن أبي طالب عن ابن مسعود فقال: «علم القرآن والسنة وانتهى وكفى بذلك علماً» (الاتقان: ٢ / ١٨٧).

وكان من حَفَظَ القرآن، فقد ورد في كتاب (المصاحف) للسجستاني فقرة تحت عنوان «كتابة المصاحف حفظاً»، يورد فيها قصّة ابن مسعود وهو يملي القرآن عن ظهر قلب، قال: جاء رجل الى عمر بن الخطاب، وقال له: «جئتك من الكوفة، وتركت فيها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلبه. قال، فغضب عمر، وانتفخ حتى كاد يملأ شعبي الرجل، قال: من هو ويحك؟ قال: هو عبد الله بن مسعود. قال فما زال يطفأ ويتسرّى عنه الغضب، حتى عاد الى حاله الأولى التي كان عليها، ثم قال: ويحك والله ما أعلم بقي من الناس أحد هو أحقّ بذلك منه» (١٥٢ - ١٥٣).

وكان عبد الله بن مسعود يقول: «ما من كتاب الله آية إلا أعلم حيث نزلت، وفيما نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لرحلت إليه» (المصاحف: ٢١)، وذكرها ابن كثير بصيغة أخرى قال: «والذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه» (كتاب فضائل القرآن: ١٥٥).

بينما يوردها السيوطي على هذا النحو: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية إلا

وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته» (الاتقان: ٢ / ١٨٧).

وقد ورد عن أبي الدرداء أنه قال: «العلماء ثلاثة، رجل بالشام، يعني نفسه، ورجل بالكوفة، يعني عبد الله بن مسعود، ورجل بالمدينة، يعني علياً» (باب ذكر المعتزلة: ٥٠).

وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً، له منها في الصحيحين مائة وعشرون حديثاً (مبارق الأذهار: ١ / ٢٧).

هذا بعض ما قيل في عبد الله بن مسعود، سواء على لسان محمد بن عبد الله، أو على ألسنة الصحابة، وبعض ما قال هو عن علمه بنصوص القرآن دون أن يعترض أحد على ما قال، فدلّ ذلك على إعتقادهم بسعة علمه، فالرجل ثقة عند النبي بخصوص القرآن، وهو كذلك عند الخليفة الثاني، بل أنّ عمر لا يعتقد أنّ أحد يستطيع أن يملّي القرآن عن ظهر قلب غير ابن مسعود، ونرى ابن الدرداء كيف يشير الى قطيبة ابن مسعود في العلم.

د - موقفه من سورة الفاتحة

كلّ هذه الشهادات التي وردت في حق ابن مسعود، ابتداءً بشهادتي النبي وخليفته، ثمّ شهادات الصحابة، أقول كلّها تجعلني أتوقّف طويلاً، أمام إشكال أثار جدلاً إسلامياً منذ لحظة (توحيد) تدوين المصاحف على يد عثمان بن عفان.

يورد السيوطي نقلاً عن الإمام فخر الدين الرازي قال «نقل في بعض الكتب القديمة: إنّ ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن» (الاتقان: ١ / ٧٩).

وأورد أيضاً نقلاً عن ابن حجر في شرح البخاري: «قد صحّ عن ابن مسعود

إنكار ذلك، فأخرج أحمد وابن حبان عنه: إنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه * وأخرج عبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي قال: كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول إنهما ليستا من كتاب الله * وأخرج البزار والطبراني من وجه آخر عنه: إنه كان يحك المعوذتين من المصحف، ويقول إنما أمر النبي ﷺ، أن يتعوذ بهما، وكان عبد الله لا يقرأ بهما. أسانيدھا صحیحة (الإتقان: ١ / ٧٩).

بينما جاء في كتاب (تأريخ القرآن) للزنجاني نقلا عن ابن النديم «قال ابن سيرين: وكان عبد الله بن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، ولا فاتحة الكتاب» (مقالات: ٧٥). والجملة ذاتها في (تأريخ القرآن للأبياري: ٨٦)، بينما اكتفى رشيد الخيَّون بالقول: «كان هناك خلاف عليها في أن تكون من القرآن أم لا» (جدل التنزيل: ١٤) دون أن يناقش الموضوع، وهو يصب في صلب جدل التنزيل.

وإتباعاً لآلية مؤرخي المؤسسة الإسلامية - في إيجاد تبرير قمعي لما يمكن أن يفتح ثغرة في جدارها الكونكريتي - ذكر السيوطي أيضا نقلا عن ابن قتيبة في (مشكل القرآن): «ظنَّ ابن مسعود أنَّ المعوذتين ليستا من القرآن، لأنَّه رأى النبي ﷺ، يعوذ بهما الحسن والحسين، فأقام على ظنِّه، ولا نقول إنَّه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار. قال: وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنِّه إنَّها ليست من القرآن معاذ الله، ولكنه ذهب إلى أنَّ القرآن إنَّما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى أنَّ ذلك مأمون في سورة الحمد لقصرها، ووجوب تعلمها على كلِّ أحد. قلت: وإسقاطه الفاتحة من مصحفه أخرجه أبو عبيد بسند صحيح» (الإتقان: ١ / ٨٠).

ما يهمني من رأي ابن قتيبة هنا هو إقراره بأن ابن مسعود كان لا يكتب سورة الفاتحة في مصحفه، لكنني أحب أيضاً أن أتوقف قليلاً عند التبريرات التي أجهده نفسه فيها ليتلافى مثل هذا الإشكال.

أقول إنّ ما ذكره ابن قتيبة - باتكانه على «ما يرى أهل النظر» (تأويل مشكل القرآن) - من تبرير لعدم كتابة ابن مسعود سورة الفاتحة في مصحفه لا يمكن له أن يصمد أمام محاجة منطقية: -

١ - إنّ سورة الفاتحة ليست أقصر سور القرآن، فهناك سورة الإخلاص، المسد، النصر، الكافرون، الكوثر، قريش، الفيل، العصر، والقدر. فلو جاز أنّ قصر السورة كان سبباً لعدم كتابته الفاتحة فهذه السور أولى بعدم كتابتها أيضاً، لأنّها كلّها أقصر من سورة الفاتحة.

٢ - وأما قوله «وجوب تعلّمها»، فأعتقد أنّ سورة الإخلاص التي تحتوي على ثلث الإسلام - وهو التوحيد - لا تقلّ وجوباً عن الفاتحة، وهي أقصر منها، فكان أولى به ألا يكتبها أيضاً. وقد أخرج (أبو سعيد الشاشي) في مسنده عن ابن مسعود نفسه عن محمد بن عبد الله قال: «أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كلّ ليلة. قالوا: ومن يطيق ذلك؟ قال: بلى (قل هو الله أحد)» (المسند: ١ / ٤٢٤).

وجاء في (تفسير البغوي) عن أبي سعيد الخدري قال: إنّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويردّها، فلمّا أصبح أتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالّها (أي يراها قليلة)، فقال له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثلث القرآن» (٥ / ٣٣٠). وفي (الإنشاق) أنّ سورة الإخلاص كانت «تسمّى الأساس لاشتغالها على توحيد الله، وهو أساس الدين» (١ / ٥٥)، والفاتحة، وهي من السور الأساس أيضاً، فقد ورد ضمن أسمائها

أنها كانت تسمى (الأساس)، وهي لا تقتصر في مضمونها على التوحيد كسورة الإخلاص فحسب، بل فيها إقرار أيضاً باليوم الآخر، وتتضمن الدعاء والمناجاة والتفويض، أي أنها تتضمن الإقرار بالله، والتسليم له.

٣ - يورد ابن خالويه في كتابه (مختصر في شواذ القرآن) إن ابن مسعود هو الوحيد الذي كان يقرأ: «أرشدنا الصراط المستقيم»، في حين كان الإجماع على ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كما إنه أسوة بعمر بن الخطاب كان يقرأ: «صراط من أنعمت عليهم» بدلاً من ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (ص ١).

كل هذه الأسباب - إضافة الى ما سأطرق إليه لاحقاً - تجعلني أميل إلى موافقة الخبر الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازي من كون ابن مسعود لم يكن يعتبر الفاتحة من القرآن.

القول بذلك يجعلنا أمام إشكال آخر، وهو أن النصّ قديم، مقروء على لسان محمد والمسلمين الأوائل، وعبد الله بن مسعود أحد المسلمين الأوائل، فقد ورد في هامش (سيرة ابن هشام) أن إسلامه كان «قديماً في أول الإسلام، حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة» (١/ ٢٧٢)، علماً أن سعيد بن زيد أسلم قبل أن يدخل محمد بن عبد الله دار الأرقم، يقول الدكتور جواد علي في إسلام سعيد: «ولا بد أن يكون لرأي والده - زيد بن عمرو بن نفيل - في دين قومه، وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم، أثر في نشوء هذا الإبن، وفي إقدامه مع السابقين على الدخول في الإسلام» (المفصل: ٦/ ٣٧٢)، وكان بيت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من البيوت التي عرفت التوحيد، ودعت إليه قبل الإسلام (تاريخ العرب في الإسلام: ١٩٣)، بل وأصبح هذا البيت



نافذة لنشر الإسلام في المرحلة السرية (ابن هشام: ١ / ٣٦٧ - ٣٦٨).
لذا فأننا أرى أنّ عبد الله بن مسعود كان من الأشخاص القريبين من حلقة زيد
بن عمرو بن نفيل، ويبدو أنّه كان على علم بأحاديث الجيل الأول من
الأحناف، مثل أمية بن أبي الصلت الذي أنشد أمام زيد بن عمرو بن نفيل قرب
الكعبة:

«كلّ دين يوم القيامة عند الله سوى الحنيفة زور»
فقد ورد عن ابن مسعود أنّه كان يقرأ: «أنّ الدين عند الله هو الحنيفة» بدلاً
من «الإسلام» كما مثبت في مصحف عثمان (المصاحف: ٧٠).
ويبدو أنّه كان ممن يقرأون سورة الفاتحة قديماً أيضاً.

الفصل السادس:

ما نزل من القرآن على لسان آخرين

أردت في هذه الفقرة أن أستثمر العنوان الذي إستخدمه جلال الدين السيوطي «ما نزل من القرآن على لسان الصحابة» (الاتقان/ ١ : ٣٤ - ٣٥)، وأن أقوم بتوسيعه قليلا، بأن أضيف الى الصحابة الأفراد المناهضين للإسلام من الدهريين والوثنيين، إضافة الى الأحناف الذين رفضوا الإعتراف بنبوة محمد بن عبد الله، لكي أخلص فيما بعد الى ما يمكن إثباته من ورود بعض نصوص القرآن، أو آيات منه، على ألسنة الجيل الأول من الأحناف، الذين عاصروهم محمد بن عبد الله، ولم يدركوا دعوته، مثل زيد بن عمرو بن نفيل الذي مات قبل البعثة بخمس سنوات، وقس بن ساعدة الإيادي الذي سمع منه محمد، وليس هناك ما يشير الى زمن موته، وخالد بن سنان العبسي الذي مات قريبا من البعثة، وأن أركز بصورة خاصة على أحناف الحجاز (مكة/ الطائف/ يثرب)، إضافة الى زيد بن عمرو بن نفيل مثل أمية بن أبي الصلت الذي مات في السنة الثانية للهجرة، وورقة بن نوفل الذي مات مع بداية الدعوة، وأبي قيس بن الأسلت الذي مات بعد فتح مكة.

في القرآن - بحسب رواية المؤرخين والمفسرين - جمل وآيات كثيرة وردت على لسان دهريي قريش أيام كان محمد في مكة.



وهنا علينا أن نتنبه الى أنَّ الصراع (الاجتماعي / السياسي) مع بداية الدعوة المحمدية كان ثلاثي الأطراف :

١ - صفَّ محمد وأتباعه (تمثّل الأتباع بقسم من الجيل الأوّل للأحناف في مكة مثل عبيد الله بن جحش، وآخرين من الجيل الثاني للأحناف مثل أبي بكر بن قحافة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود).

٢ - صفَّ الأحناف الذين لم يتبعوا محمد، مثل (أبي أحيحة سعيد بن العاصي، وشيبة بن ربيعة).

٣ - صفَّ الدهريين والوثنيين، مثل (الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث).
وكان صراع هذه الصفوف الثلاثة جميعها يُنتج وعياً اجتماعياً وسياسياً يُمثّل الحاضنة لتأسيس نصوص القرآن.

أ - نزول القرآن على لسان الصحابة

من ما ورد في موضوعة نزول القرآن على لسان بعض الصحابة بحسب رواية السيوطي في (الإتقان : ١ / ٣٤ - ٣٥)، أنَّ جملة من النصوص القرآنية نزلت مطابقة لقول عمر بن الخطاب أو لرأيه، فقد ذُكر أنَّ عمر قال : «وافقت ربّي، أو وافقني ربّي»، وذكر له عدداً من المواقف والنصوص التي تؤكد القول هي كما يلي :

١ - قال عمر : «قلت : يا رسول الله لو اتَّخذنا من مقام ابراهيم مصلى . فنزلت : واتَّخذوا من مقام ابراهيم مصلى» .

٢ - قال عمر : «قلت : يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب» .

٣ - قال عمر : «اجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة، فقلت لهن : عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . فنزلت كذلك» .

٤ - قال عمر: «وافقت ربّي في أسرى بدر».

٥ - قال عمر: «نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾، فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾».

٦ - وفي خبر أنّ يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال: إنّ جبريل الذي يذكر صاحبكم عدوّ لنا، فقال عمر: من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإنّ الله عدو للكافرين. قال: فنزلت على لسان عمر.

٧ - وقيل أنّ مصعب بن عمير حمل اللواء يوم أحد، فقطعت يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، ثم قطعت يده اليسرى، فحنى على اللواء، وضمه بعضديه الى صدره، وهو يقول: «وما محمد إلا رسول» الآية، ثم قتل فسقط اللواء، قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك (الاتقان: ١ / ٣٥).

ب - تثبيت كلام الدهريين والوثنيين داخل متن النص المقدس .

لم يكتف القرآن بسرد قصص الدهريين والوثنيين والأحناف الرافضين في مكة والطائف مثل أمية بن أبي الصلت، بل ثبت أحاديثهم وأقوالهم، كبعض أقوال النضر بن الحارث، الذي يقول البلاذري فيه: «كان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، ومخالطة النصارى واليهود، وكان لما سمع بذكر النبي وحضور وقت مبعثه» يقول: والله لئن جاءنا نذير لنكوننّ أهدي من إحدى الأمم. فنزلت فيه: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدي من إحدى الأمم» (أنساب الأشراف: ١ / ١٣٩). وفيه نزلت أيضا: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين» (أنساب الأشراف: ١ / ١٤٠).

وقد ورد أنَّ عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وكان من خطباء قريش ومتكلميهم، كان يقول لمحمد بن عبد الله في مكة: «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً» (أنساب الأشراف: ١ / ١٤٥، أسباب النزول: ١٦٩). وثبت النصُّ المقدَّس وجهة نظر الوليد بن المغيرة - حكم قريش ووحدها - كآية من آياته حين قال: «إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر»، وقد خصَّص ابن اسحاق فقرة في سيرته تحت عنوان «تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن» (ابن هشام: ١ / ٢٨٨ - ٢٩٠).

أكتفي بهذه العيّنات من الأخبار، التي أشارت صراحة إلى حضور وفاعلية بعض الصحابة الأوائل في عملية إنتاج النص القرآني، إضافة إلى ما تمّ تدوينه في القرآن، من أراء خطباء قريش ومتكلميهم من الدهريين والوثنيين على السواء، وهي أخبار كثيرة في كتب السيرة والتفسير، إكتفيت بهذا النزر القليل فقط كعيّنة تمّ التصريح بها، لكي أطرح سؤالاً سيكون مفتاحاً لي في متابعة البحث خارج نطاق ما تمّ تثبيته، وأعني، إذا ما كان للصحابة وللمعارضين من الدهريين والوثنيين كلّ هذا الحضور في عملية إنتاج النص المقدس/ القرآن، فأين هو حضور وتأثير الجيل الأول من الأحناف، سواء الذين ماتوا قبل الدعوة، أو الذين زامنوها ولم يؤمنوا بها؟!

ج - دور الأحناف في عملية إنتاج النص القرآني

حين أتحدّث عن الأحناف الذين زامنوا الدعوة، يمكنني القول أنّه كان هناك تأثير وتأثر واضحين أيضاً، أي أنّ كلا الطرفين كان يتأثر بالآخر، وفي أحيان كثيرة، كانوا يبتّون نفس المواقف الفقهية تجاه أزمات إجتماعية تصيب الجميع عادة، وهذا الكلام لا ينحصر على الأحناف فقط، بل يشمل الدهريين والوثنيين أيضاً، فقد أجمع المؤرّخون على أنّ أوّل من قطع في سرقة كان الوليد بن

المغيرة (الأوائل للعسكري: ٣٤)، والوليد هو أحد دهريي قريش، أي أنه لا يؤمن باليوم الآخر، بل إضافة إلى القطع في السرقة فإن الوليد كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة، فاتخذت سنة فيما بعد (الأوائل للعسكري: ٣٠)، بل إن قريش كانت تتسائل بعجب: لماذا لم يُنزل القرآن على الوليد بن المغيرة وهو حكمها ووحيدها وعدلها، كان يكسو الكعبة في عام وتكسوها قريش في العام القابل ١؟

لقد كان هناك تنافس واضح - بين أطراف الصراع الثلاث جميعها - على سنّ الشرائع والقوانين، وكان الجميع يأخذ بهذه السنن أحياناً، كما بقي من سنن الوليد بن المغيرة بعد أن تبتأها الاسلام.

١ - أمية بن أبي الصلت

وقد كان لحضور أمية بن أبي الصلت - أحد أقطاب الجيل الأول للأحناف في الحجاز - ثقل كبير على أحناف مكة غير المؤمنين بدعوة محمد، إضافة إلى تأثيره أيضاً على محمد، وكان الأخير يحب الإستماع لشعر أمية (مختصر صحيح مسلم: ٤٩٢)، حتى أنه جالس الفارعة بنت أبي الصلت، وطلب منها أن تقص عليه أخبار أخيها، وأن تُسمعه من شعره، فأسمعته، وقصّت عليه بعضاً من سيرة أمية، وقصّت عليه طريقة موته أيضاً (البداية والنهاية: ٢ / ٢٢٤ - ٢٢٦)، حدث ذلك بعد فتح مكة، ويعد أن دخلت الطائف في الاسلام، بل أن محمداً كان يتمثل ببيت أمية:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَبِي عَبْدِكَ لَا أَلْمَا

فدخل في ضمن أحاديث النبوة (خزانة الأدب: ٢ / ٢٩٥)، بل ورد في كتب أسباب النزول أن آية «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» نزلت في حق أمية (أسباب النزول: ١٢٦)، وهي إشارة واضحة تماماً إلى ورود بعض الآيات على لسان أمية بن أبي الصلت، ثم السكوت عنها.



٢ - خالد بن سنان العبسي

هو خالد بن سنان بن غيث بن عبس (مروج الذهب: ١ / ٦٩ - ٧٠)، أحد بني مخزوم، من بني قطيعة بن عبس، ولم يكن في بني إسماعيل نبياً قبله (الحيوان: ٤ / ٤٧٦).

«تروي كتب الأخبار كيف أنَّ ابنة خالد بن سنان قدمت على محمد بن عبد الله» فبسط لها رداءه وقال: هذه ابنة نبي ضيعه قومه.

قال: وسمعتُ سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فقلت: «كان أبي يتلو هذه السورة» (الحيوان: ٤ / ٤٧٦ - ٤٧٧).

هذا وقد خصَّص محيي الدين بن عربي لخالد بن سنان فقرة في كتابه (فصوص الحكم) تحت عنوان «فصَّ حكمة صمدية في كلمة خالدية»، بإعتباره نبياً «تشرف بقرب نبوته من نبوة محمد ﷺ»، قال في أولها: «وأما حكمة خالد بن سنان فإنه أظهر بدعواه النبوة البرزخية» (فصوص الحكم: ١٩٩)، لأنه قال لقومه عندما حضرته الوفاة: «إِذَا دُفِنْتُ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ عَانَةٌ مِنْ حَمِيرٍ، يَقْدَمُهَا عَيْرٌ أَقْمَرُ، فَيَضْرِبُ قَبْرِي بِحَافِرِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَانْبَشُوا عَنِّي، فَإِنِّي سَأُخْرِجُ فَأُخْبِرْكُمْ بِجَمِيعِ مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ وَالْقَبْرِ. فَلَمَّا مَاتَ رَأَوْا مَا قَالَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوهُ فَكَّرَهُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ، وَقَالُوا نَخَافُ أَنْ نُسَبَّ بِأَنَّا نَبَشْنَا عَنْ مَيِّتٍ لَنَا» (المعارف: ٣٧).

ولخالد أخبار وأحاديث في محاربته (نار المعجوس) التي لولاه لاكتسحت العرب، حتى أنَّ بعض المؤرخين إعتبروا إطفاء النار كمعجزة له (الأوائل للعسكري: ٢٢).

عاش خالد بن سنان في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، ومات شيخاً قبل المبعث (نشوة الطرب: ٢ / ٤٥٥). إلتقت إبنته بمحمد بن عبد الله، وحاول عمر بن الخطاب أن يجعل إبنها كعب بن يسار بن ضبة العبسي قاضياً

على مصر فابى (فتوح مصر : ٣٨٢).

خبر قدوم ابنة خالد بن سنان الذي تكرر في كتب الأخبار فيه إشارة واضحة الى ترديد سورة الإخلاص، أو بعض منها على لسانه، وجواب محمد بن عبد الله يشير الى معرفته بخالد، أو على الأقل كان على دراية بدعوته.

٣ - قس بن ساعدة الإيادي

ذكر الميداني أنَّ قس بن ساعدة الإيادي «كان من حكماء العرب، وأعقل من سمع به منهم» (مجمع الأمثال : ٩٩)، وقد ورد عنه أنه كان يصيح في عكاظ : «أين الأرباب الفعلة، ليصلحن كلَّ عامل عمله، كلا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غدا» (إعجاز القرآن : ١ / ٢٠٠)، يمكن تحسُّس سورة الإخلاص أو جذرها البعيد.

وروا عنه أيضا : «وسماء ذات أبراج» (دلائل النبوة لأبي نعيم : ١ / ١٠٤)، التي أصبحت في النصِّ المقدَّس : ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾. وكان قس بن ساعدة أول من قال : البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، وكان محمد بن عبد الله يروي عنه بعض خطبه، حتى قيل «لو لم يكن من فضل قس إلا أنَّ النبي روى عنه لكفاه فخرا» (الأوائل للعسكري : ٤٥).

كلَّ هذه إشارات الى حضور وتأثير الجيل الأول من الأحناف على محمد بن عبد الله، وعلى عملية إنتاج النصِّ القرآني، وهو ما لم تشر اليه كتب الأخبار صراحة، رغم أنها هرَّبت لنا إشارات هنا وهناك، لا يمكن أن تؤدي الى قراءة لو أنها أُخِذَتْ مفكَّكة، بل تبدو كما لو أنها مُقحمة تدفع الى التشكيك بصحَّتها، لا على صعيد إنتاج النصِّ المقدَّس فقط، بل على صعيد الممارسة الاجتماعية أيضا، لكنَّها في حال التحامها بعضها ببعض، فإنَّها حتماً ستفقد ليس الى قراءة جديدة فحسب، بل الى تأسيس رؤية جديدة مغايرة لكلِّ ما هو مدوَّن حقا، وهو ما سنعمل على إيضاحه، والكشف عنه.

الفصل السابع:

سورة (الفاتحة) نهاية جدل حنيفي عميق

ينبغي الإنتباه الى أنّ (سورة الفاتحة) تشير إلى خلاصة جدل عميق مع اليهود والنصارى، فقد أوردت كتب التفسير أنّ (المغضوب عليهم) هم اليهود، وأنّ (الضالين) هم النصارى.

أ - كلمات ومفاهيم غامضة

والقول بأنّ الفاتحة أول ما نزل من القرآن، يعني أنّها توصّلت إلى حسم الجدل مع اليهود والنصارى، فالبداية هنا هي بداية إنفصال عن أهل الكتب الأخرى، والجدل هنا ليس مع الوثنيين أصلاً، بل مع الكتابيين، إنّها تمثّل تحديد موقف تجاه الأديان الأخرى، لذا جاء فيها بعض المفردات التي عُدّت من غريب القرآن، وهي مفردات كان يستخدمها أهل الكتب الأخرى مثل (الرحمن، العالمين، يوم الدين، الصراط، المغضوب عليهم، الضالين)، وأرى أنّ مفهوم (الغريب) هنا يفتح على دالتين هما: -

١) غرابة مفهوم: لأنّ بعض الكلمات كانت مشحونة بدلالات دينية، أو

كانت مشحونة بوجهات نظر دينية لفرق أو ملل بعينها، مثل: المغضوب عليهم، الضالين، يوم الدين، العالمين.

٢) غرابة كلمة: كانت بعض الكلمات ليست عربية الأصل، بل معربة، مثل كلمة: الرحمن، الصراط، فقد ورد أن الصراط هو الطريق بلغة الروم (غريب القرآن وتفسيره: ١٨)، كما ورد أن الرحمن كلمة عبرية (تفسير القرآن العظيم: ٦٥).

نصّ الفاتحة لا يجادل الوثنيين، لأنه خارج عليهم تماماً، هو نصّ منفصل، لا يتقاطع معهم، لأنّ التجربة الروحية التي يتضمّنها قد تجاوزتهم أصلاً، من هنا فإنّ النصّ يحسم جدلاً جديداً، أو مستوى آخر من الجدل مع اليهودية والمسيحية معاً، النصّ يعلن وقوفه منفرداً بعيداً عن الأطياف الروحية كلّها، وبهذا فإنّه يجسّد الحنيفية بشكل تام، بدلالة الانحراف عن كلّ ما هو موجود.

وهذا يتطلب إعادة قراءة التاريخ الحقيقي للأحناف بدءاً، ومن ثمّ، محاولة ربط المتبقي من الأخبار والإشارات التي يمكن أن تقود الى بداية أخرى تختلف تماماً عن البداية الموجودة في كتب السيرة، والمُتَبَنّاة من قبل المؤسسة الإسلامية.

ب - أخطر وأهم رجل حنيفي قبل الإسلام

أريد هنا أن أركّز الإنتباه على سيرة أهم وأخطر رجل حنيفي، ليس على صعيد مكة وحدها، بل امتدّ تأثيره على أحناف الطائف ويثرّب أيضاً، وأقصد تحديداً سيرة (زيد بن عمرو بن نفيل) الذي رفض إدخال الأصنام إلى الكعبة، الأمر الذي جعل الخطاب بن نفيل - وهو أخوه من أمه، ووالد الخليفة الثاني - يدفع سفهاء قريش الى ضربه وطرده من مكة (ابن هشام: ١ / ٢٤٦)، فمات متأثراً بجراحه والناس تبني الكعبة، ودفن بأصل جبل جرّاء (الأقباس النيرة: ٢٨١).

ذكر ابن كثير عند تفسيره الآية السابعة من سورة الفاتحة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ شيثا من سيرة زيد بن عمرو بن نفيل، وبالذات ذكر الجزء الذي يتطابق فيه رأي زيد مع الرأي الموجود في السورة بخصوص اليهود والنصارى، قال ابن كثير: «وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل لأنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه الى الشام يطلبون الدين الحنيف»، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال: أنا من غضب الله أفر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه. فاستمرّ على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى (تفسير القرآن العظيم: ١ / ٣٠).

وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد خرج من مكة باحثاً عن الدين، ويمكن مما تبقى من أخباره أن نعرف أنه اتجه شمالاً الى يثرب ومنها الى أحبار خيبر، ثم الى أحبار فدك، ثم الى أيلة، ثم الى البلقاء، ثم الى راهب في الموصل، ثم الى شيخ في الجزيرة، ثم الى شيخ في الحيرة، ومن ثم عاد الى مكة. وكانت له رحلة أيضاً باتجاه الجنوب الى الحبشة (انظر: خروج الأحناف بحثاً عن الدين). أقول ليس اعتباطاً أن ترد قصة زيد بن عمرو بن نفيل في تفسير دلالاتي (المغضوب عليهم) و(الضالين)، فدلالة المغضوب عليه، ودلالة الضال تتم استخدامهما من قبل زيد بن عمرو بن نفيل نتيجة لجدل طويل مع أحبار اليهود وورهبان النصارى، سواء أكانوا نساطرة أو يعاقبة أو أبيونيين، وكانت فرق النصارى تضلل بعضها بعضاً، وكانت قصة غضب (يهوه) على اليهود مفصلاً من مفاصل ديانتهم، الأمر الذي جعل زيداً يخرج بلا شيء من جدله مع الجميع. فقد ورد أنه كان جالساً قرب الكعبة بعد عودته من خروجه الى الشام والعراق فمرّ به أمية بن أبي الصلت وسأله: يا باغي الخير هل وصلت؟



قال: لا (طبقات الشعراء: ٦٦).

لهذا قال ورقة في رثائه:

«رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا»

ج - التكفير ليس عربيا

وكما قلت فإن الفرق المسيحية كانت تضلل بعضها بعضاً، فقد ورد مثلاً أن «اليعاقبة» كانوا يطلقون صفة «الضالين» على العقيدة الملكانية (المسيحية العربية وتطوراتها: ٣٩)، ولم تكن لهذه الممارسة، أي تضليل فئة لأخرى مناوئة، لم يكن لها وجود داخل بنية العقل الوثني العربي، لأن الوثنية تتضمن إقراراً بأرضية المعتقد، فالإله هو إتفاق عصبي يميزها عن العصبية الأخرى، (الإله/ الصنم) شأن خاص بتراث القبيلة يدخل أحيانا ضمن سلالات نسبها، بل إن الوثنية إقرار بحرية الاعتقاد، وإذا حدث أن أخذت قبيلة ما إله قبيلة أخرى نتيجة للغزو، فإن القبيلة المهزومة - في حالة العجز عن استرداد إلهها - سرعان ما تستبدله بإله غيره، فعلى سبيل المثال ورد أنه كان لبني جديلة إله أخذه منهم بنو أسد، فاتخذوا إله بديلا اسمه اليعسوب (المفصل: ١٠ / ٣٠٨)، واليعسوب هو الجدول الكثير الماء، أو السحاب (اللسان: مادة عجب)، من هنا فإن التضليل والتكفير كممارسة إجتماعية جاءت مع النزعة التوحيدية، ومع التجريد. لأن التوحيد قائم على أساس إزاحة التعدد، هكذا تحولت الكعبة مثلا من بيت الآلهة الى بيت الله.

د - تأثير زيد بن عمرو بن نفيل على محمد بن عبد الله

ورد في (المسند) لابن حنبل ما يشير الى تأثير زيد بن عمرو بن نفيل على محمد بن عبد الله، ففي الحديث الذي يحمل رقم (١٦٤٨) «عن سعيد بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ، بمكة هو وزيد بن حارثة، فمرّ بهما زيد بن عمرو بن



نفيل، فدعوه الى سفرة لهما، فقال: يا ابن أخي، إني لا أكل مما دُبِحَ على النُصْب، قال: فما روي النبي ﷺ، بعد ذلك أكل شيئاً مما دُبِحَ على النُصْب، وقد ورد هذا الحديث في (مجمع الزوائد: ٥ / ٤١٧، وفي الاستيعاب: ٢٧٠، وفي إرشاد الساري: ٨ / ٢٧٦ - ٢٧٧)، كذلك ورد في كتب السيرة والأدب، قال أبو العلاء المعري: «ذكر أبو معشر المدني في كتاب المبعث حديثاً معناه أَنَّ النبي ﷺ، ذبح ذبيحة للأصنام، فأخذ شيئاً منها فطُيخَ له، وحمله زيد بن حارثة ومضيا ليأكلاه في بعض الشعاب، فلقيهما زيد بن عمرو بن نفيل، وكان من المتألهين في الجاهلية، فدعاه النبي ﷺ، ليأكل من الطعام، فسأله عنه فقال: هو من شيء ذبحناه لآلهتنا. فقال زيد بن عمرو: إني لا أكل من شيء دُبِحَ للأصنام، وإني على دين إبراهيم عليه السلام، فأمر النبي زيد بن حارثة بإلقاء ما معه» (رسالة الغفران: ٢٩٥ - ٢٩٦).

وذكر ابن اسحاق لقاء محمد بن عبد الله بزيد بن عمرو بن نفيل، وأنَّ حواراً تمَّ بينهما كان فيه محمد يسأل وكان زيد هو الذي يجيب، وقد عاب على الأوثان ومن يعبدها ويذبح لها، وأنَّ محمداً قال يصف تأثير زيد عليه: «فما تحسست بوثن منها بعد ذلك على معرفة بها، ولا ذبحت لها حتى أكرمني الله عز وجل برسالته» (السيرة النبوية لابن اسحاق: ١٦٥).

بينما يورد الحلبي حديثاً عن عائشة، قالت: «سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول سمعتُ زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كلَّ ما دُبِحَ لغير الله تعالى فكان يقول لقريش: الشاةُ خلقها الله عز وجل، وأنزلَ لها من السماء الماء، وأنبتَ لها من الأرض الكلا، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟! فما دُفئتُ شيئاً دُبِحَ على النُصْب حتى أكرمني الله برسالته» (السيرة الحلبية: ١ / ١٢٣).

هذا وقد إعتبر (شبرنغر: Sprenger) زيداَ أحد مصادر محمد الشفوية، ويقول

(نولدكه Noldeke) أنّ شبرنغر تمادى حين جعل محمداً لا يتأثر بتعاليم زيد فقط، بل أنّه استعار تعابيره أيضاً (تاريخ القرآن: ١٧).

والحديث الذي يرويه الحلبي في سيرته يشير صراحة الى تأثر محمد بن عبد الله بزيد، وآنه كان يحفظ جزءاً من خطبه في مكة، وهذا يفتح باب البحث على مصراعيه، ويجعلني أتقدم خطوة في عملية الكشف هنا، وما أريد التأكيد عليه في هذه اللحظة هو سورة الفاتحة تحديداً، لأنّ ما جاء بخصوصها في كتب السيرة والحديث، إضافة الى أخبار وأحاديث أخرى تبدو لا علاقة لها بشيء لو أنّها أُخِذَتْ على انفراد، أقول كلّ هذه القرائن مجتمعة تجعلني أواصل التقدّم على أرضية منطقية.

هـ - علاقة زيد بن عمرو بن نفيل بسورة الفاتحة

كتجربة معرفية تبدو سورة الفاتحة أكثر التصاقاً بالتاريخ الشخصي لزيد بن عمرو بن نفيل وبتجربته الروحية، ولهذا لا أشك في أنّها كانت بعضاً مما ورد على لسان زيد قبل الإسلام، تماماً كما نزلت آيات عديدة على لسان عمر بن الخطاب ومصعب بن عمير وآخرين فيما بعد.

والقول بأنّها كانت بعضاً مما يردّه زيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة المحمدية، يعني أنّ الجيل الأوّل من الأحناف في مكة ويثرب والطائف كانوا على علم بها، ويبدو أنّها كانت بصياغة أخرى تمّ نسخها، ولا أستبعد أن تتطابق سورة الفاتحة بدءاً مع قراءة ابن مسعود: «أرشدنا الصراط المستقيم»، قبل أن يتمّ تثبيتها على الصيغة الواردة في مصحف عثمان.

سيعترض البعض، بأنني أقود البحث عنوة الى منطقة بالغة الوعورة، وقد يبدو في الإعتراض جانب من الحقّ، لكنّه في النهاية ليس الحقّ كلّهُ، فالإشارات المبتوثة في كتب السيرة والتفسير، إضافة الى ما ورد في كتب التاريخ الاسلامي تجعلني أشعر بالإطمئنان تجاه ما توصّلت اليه.

بدءاً ورد نصّ في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل، منسوباً لأكثر من رجل حنفي، فقد جاء على لسان كلّ من ورقة بن نوفل في مكة (ابن هشام: ١/ ٢٤٧)، وأمّية بن أبي الصلت في الطائف (شرح ديوان أمّية: ٩٢) جاء فيه: **رشدت وأنعمت ابن عمرو وأنما تجنّبت تنوراً من النار حاميا بدينك ربنا ليس ربّ كمثله وترك أوثان الطواغي كما هيا وإدراكك الدين الذي قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا** لا أريد هنا أن أتحدّث عن مفهوم التوحيد في النصّ، فقد كان زيد بن عمرو بن نفيل «موحد الجاهلية» بحسب أكثر مفسّري القرآن حتى أنّ بعضهم عدّه «نبياً» (خزانة الأدب: ٦/ ٤١٨)، وبعضهم عدّه «نذيراً» (روح المعاني: ٢١/ ١٧٩ - ١٨٠)، أو «نصف نبي» (الشخصية المحمدية: ١٣١)، واتفقوا على أنّ محمد بن عبد الله قال فيه: «إنّه يبعث يوم القيامة أمّة وحده» (الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٩١)، لكنني هنا أحب أن أركّز الانتباه على مفردتي (رشدت وأنعمت) فقط، ففيهما إشارة واضحة الى نصّ سورة الفاتحة: -

أ - لا جدل في حضور لفظة «أنعمت» ككلمة ومفهوم وصلتها بالنصّ المقدّس، فهي من الوضوح بحيث يكفي القول بذكرها، أما لفظة «رشدت»، فإنني أحاول هنا تركيز الانتباه الى القراءة الخاصّة بعبد الله بن مسعود والتي كانت تنصّ على: «أرشدنا الصراط المستقيم» بدلا من ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (مختصر في شواذ القرآن: ١).

ب - ورد في الأخبار أنّ عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أتيا النبي فقالا: «إنا نستغفر لزيد بن عمرو، فقال: نعم. فإنّه ألهم رشده، وبعثه الله أمّة وحده» (حذف من نسب قريش: ١٥)، وبهذا تتطابق قراءة ابن مسعود مع حديث محمد بخصوص رؤيته لزيد بن عمرو بن نفيل.

ج - أركز الإنتباه الى توافق تسلسل الكلمتين في النصّ الشعري وفي النصّ النثري، «رشدت وأنعمت»، «أرشدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم»، وهي إشارة الى سهولة جريانهما على اللسان، ودخولها ضمن اللاوعي الحنفي، لذا يكون خروجهما وفق التسلسل البدئي للنصّ تلقائياً.

د - أركز الإنتباه أيضاً الى حادثة إسلام عبد الله بن مسعود التي تُذكر مع حادثة إسلام سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهي إشارة صارخة الى أنّ ابن مسعود كان قريباً جداً من حلقة زيد بن عمرو بن نفيل رغم سكوت كتب الأخبار والسيرة عن ذكر ذلك.

هـ - أركز الإنتباه على حديث محمد بن عبد الله بحق ابن مسعود: «أنتك غلام معلّم» أي أنّ ابن مسعود دخل الاسلام وهو على علم، ومعلّم: يعني أخذ العلم عن أحد، غير أنّ كتب الأخبار والسيرة التي روت حديث «إنك غلام معلّم» لم تتحدّث عن ما كان يعلم، بقي ما تعلّمه ابن مسعود قبل أن يكون أحد اتباع التيار الجديد لغزاً مجهولاً، ويبدو أنّ سورة الفاتحة كانت جزءاً من ما تعلمه قبل دخوله الإسلام، ولهذا أصرّ ابن مسعود على إعتبارها خارج نصوص القرآن إضافة الى المعوذين.

وأريد التركيز هنا على رواية الواحدي التي تشير الى طلب ورقة بن نوفل من محمد أن يثبت عند سماع الوحي، وأنّ سورة الفاتحة كانت أوّل ما تلقاه محمد (اسباب النزول: ٩ - ١٠). وهذه الرواية قد تفتح باب احتمالية أن يكون ورقة بن نوفل هو صاحب النصّ، لكنني أجد التجربة الروحية لزيد بن عمرو بن نفيل أكثر قرباً والتحاماً بالنصّ من ورقة، ثمّ أنّ الأخير كان على دين زيد، فقد ورد عن محمد بن عبد الله أنّ ورقة كان يقول: «ديني دين زيد، وإلهي إله زيد» (مجمع الزوائد: ٥ / ٤١٦).

قلت أنّ كلّ هذه الحجج والقرائن تدفعني الى أن أرى وأتحسّس ثمة خيط جدّ شفاف يربط قراءة ابن مسعود لسورة الفاتحة برثاء ورقة بن نوفل وأمّية بن أبي الصلت لزيد بن عمرو بن نفيل، الأمر الذي يجعلني أرى أنّ نصّ (سورة الفاتحة) كان متداولاً بين الجيل الأول من الأحناف في مكة والطائف ويشرب قبل أن يعلن محمد بن عبد الله نبوّته في مكة، يمكن إستشفاف ذلك أيضاً من خلال قول النابغة الجعدي:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنسه ظلما
(خزانة الأدب: ٢ / ١٧٢)

أو قول أمّية بن أبي الصلت:
لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك مجداً وأمجداً
(شرح ديوان أمّية: ٣٤)

وفي رواية أخرى
لك الحمد والنعماء والفضل ربنا فلا شيء أعلى منك جداً وأمجداً
(الزهرة: ٢ / ٤٩٦)

و - طه حسين والشك السليبي

وهذا الاعتقاد من الخطورة بمكان لأنّه يفتح باباً أخرى لقراءة الحقائق التاريخية، فالإعتراضات التي وجهها طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) بإعتبار نصوص أمّية بن أبي الصلت منحولة جلّها، إن لم تكن كلّها، إعتماداً على موقف أمّية بن أبي الصلت «من النّبّي موقف الخصومة: هجا أصحابه، وأيد مخالفيه، ورثي أهل بدر من المشركين . وكان هذا وحده يكفي لينهي عن رواية شعره، وليضيع هذا الشعر، كما ضاعت الكثرة المطلقة من الشعر الوثني الذي هجي فيه النّبّي حين كانت الخصومة شديدة بينهم وبين مخالفيهم من

العرب واليهود» (ص ١١٣)، أقول إنّ هذا الرأي القديم الذي ذكره الأصهباني في كتابه (الزهرة: ٢ / ٥٠٣) يمكن دحضه وتفنيده على إعتبار: -

١ - إنّ أسباب الإنتحال نفسها تصلح أن تكون أسباباً للحفاظ على النصوص الأصلية، وهذا بحدّ ذاته يفتح باب إمكانية صحّة كلّ ما وصل إلينا.

٢ - وجود مرجع آخر كان مصدراً مهماً لنمو وعي وإدراك كلّ من محمد بن عبد الله وأمّية بن أبي الصلت على السواء، هو زيد بن عمرو بن نفيل.

إنّ منهج الشكّ مهمّ جداً في قراءة التاريخ، لأنّه يقتل الجمود الذي خلقتة القراءة السلفية بعين واحدة لأكثر من ألف عام، لكن، وهنا تكمن المأساة، فطه حسين الذي إستخدم الشكّ طريقاً، إستخدمه فقط ضمن الحدود المتاحة داخل العقل الإسلامي، شكّك في ما يمكن أن يتيح له فسحة من التحرك، لكنّها فسحة ضيقة منغلقة على نفسها أيضاً، ظلّ محاصراً بأصول مقدّسة تحاشى المساس بها، لأنّ المتاح الممكن جعل الآخرين يكتفون بحرق كتابه، ولو تجرأ قليلاً وتجاوز حدود المتاح، لأصبح مصيره أكثر سوءاً من الذي «آتيناه آياتنا فانسلخ منها» أي أمّية بن أبي الصلت (نهاية الإيجاز: ٢ / ١٧٨).

على العموم، تمكّن طه حسين من أن يزرع بذرة الشكّ، التي لا تكمن إلا لتنمو مرّة أخرى في مكان آخر، أو زمان آخر. لقد ترك طه حسين إشارة صارخة إلى أنّ الحقيقة ليست في ما وصل إلينا كيقين، وإنّها هناك في ما وراء الكلمات والسطور، وهذا ما يُحسب له.

أريد أن أقول هنا أنّ أمّية بن أبي الصلت كان في قصائده أكثر التصاقاً بزيد بن عمرو بن نفيل منه بمحمد بن عبد الله ونصوص القرآن، وقوله وهو على حافة الحياة: «أعلم أنّ الحنيفية حقّ، ولكن يداخلني الشكّ في محمد»، يصلح أن يكون مفتاحاً رئيساً لهذه القراءة، رغم أنّ الأصهباني مثلاً تجاوز هذا التصريح

الخطير، وذكر نصاً لأمية في مدح النبي (الزهرة: ٢ / ٥١١) محاولة منه في رتق فجوات التاريخ.

لقد أورد صاحب كتاب (نهاية الإيجاز) أنَّ الآية التي تنص ﴿وَأَقْلُ طَلِيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي أَتَيْنَهُ ءَايَتُنَا فَأَنسَلَخْ مِنْهَا﴾ (الأعراف: ١٧٥) نزلت في حق أمية بن أبي الصلت (٢ / ١٧٨). وكذلك أثبتها الواحدي في كتابه (أسباب النزول: ١٢٦)، دون أن تكون هناك إشارة الى تلك الآيات، فلقد تمَّ السكوت عنها والتعتيم عليها، حتى أصبح من العسير الوصول الى نافذة في الجدار الكونكريتي للمؤسسة الراوية، وأعتقد أنَّ آية ﴿ءَاتَيْنَهُ ءَايَتُنَا﴾ تشير صراحةً الى نزول بعض الآيات على آخرين من الأحناف، ولا أشكَّ في كون سورة (الفاتحة) كانت من بعض ما نزل منها، وأنها كانت بعضاً من ما كان يردده زيد بن عمرو بن نفيل في مكة قبل الإسلام، وأنه لم ينسلخ منها، ربّما لأنّه مات قبل إعلان محمد بن عبد الله نبوّته، وقبل أن يتمَّ إضافة ما تمَّ إضافته الى النصّ لاحقاً.

المبحث الرابع

الشكل الأول والصيغة الأولى لسورة الفاتحة

الفصل الأول:

سورة (الفاتحة) بدون بسم الله الرحمن الرحيم

بعد أن رأينا كيف أنّ البحث يقود الى أسبقية وجود سورة الفاتحة تاريخياً على الدعوة المحمدية، وكيف أنّها كانت نصّاً معروفاً ومقروءاً من قبل الأحناف المقرّبين لزيد بن عمرو بن نفيل، أحاول هنا أن أبحث في الشكل والصيغة الأولى للنصّ، الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى مجازفة كبرى، لأنّ ما تمّ ترسيخه في العقل الإسلامي هو الشكل النهائي للنصّ، الذي تبناه عثمان بن عفان في مصحفه، ومع هذا فكتب الأخبار والسيرة، وكتب الأحاديث أيضاً، تركت لنا مسامات هنا وهناك للتنقّس، يمكن من خلالها أن ننفذ - سواء - الى الشكل الأول، أو المضمون الأول للنصّ، وهو ما سأقوم به ابتداءً من هذا الفصل .

بدءاً أرى أنّ سورة الفاتحة كانت بدون (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهذا الرأي ليس جديداً، فقد قال به بعض الصحابة، كما ورد في الحديث أيضاً، مثل : «إذا قرأتم الحمد، فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنّها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني» (الإنقان: ١ / ٥٣)، وهذا الحديث يقول صراحة أنّ



الصحابه كانوا يقرأون سورة الفاتحة بدون (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأنّ محمدا أمرهم بقراءتها كجزء من السورة، فهي إذن إضافة لاحقة على النصّ. كما جاء في (تفسير المنار) عن أنس قال: صَلَّيتُ مع النبي، وأبي بكر، وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم). ولأحمد ومسلم عن أنس قال: صَلَّيتُ خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أوّل قراءة، ولا آخرها (١/ ٧٢).

وفي هذا الحديث إشارة الى أنّ محمداً أيضاً كان في فترة من فترات دعوته يقرأ سورة الفاتحة بدون آية البسملة.

وقد تابعتُ كيفية ولادة وصيرورة آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كتابي (مسلمة الحنفي: قراءة في تاريخ محرّم)، ولا أجد بأساً من تسليط بعض الضوء عليها، وتوضيحها الآن أيضاً، لأنّها تخدم عملية البحث والكشف.

تؤكد كتب التاريخ الإسلامي أنّ أهل مكة قبل الاسلام كانوا يستفتحون كتبهم بجملة «بسمك اللهم»، وأنّ أمية بن أبي الصلت - أحد أقطاب الجيل الأوّل من الأحناف - هو من أدخلها إليهم، ويروون في ذلك قصّة العجوز التي قطعت الطريق على قافلة كان أمية أحد ركبها، وتروي القصّة كيف أنّ العجوز نفّرت الابل، وكيف عجّزوا عن جمعها ومواصلة الطريق حتى استعان أمية بن أبي الصلت براهب كان في صومعته بالقرب من مكان العجوز، فدله الراهب على قول «بسمك اللهم»، وهكذا نجت القافلة من العجوز وسحرها (مروج الذهب: ١/ ٧٤). نتوصّل من هذه القصة الى حقيقتين تاريخيتين هما -

١ - أنّ تجربة أمية بن أبي الصلت في الحنيفة قادته الى تبني «بسمك اللهم»، وأنّ أهل مكة أخذوها عنه.

٢ - أَنَّ أُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ أَخَذَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَنْ رَاهِبٍ مَسِيحِي لَمْ تُحَدِّدْ هَوِيَّتَهُ، مَا اسْمُهُ؟ وَمَا عَقِيدَتُهُ؟ لَكِنَّهُ كَانَ يَعْتَزِلُ النَّاسَ فِي صَوْمَعَةٍ.

ولما كان محمد بن عبد الله أحد أهم أقطاب الجيل الثاني من الأحناف، فإنه واضب على استخدام «بسمك اللهم» كفاتحة لسور القرآن (المراسيل: ٩٠)، دون أن تكون هناك إشارة محدّدة للفترة الزمنية التي بقيت هذه الممارسة قائمة ضمن الوعي الاسلامي بدءاً، إلا أنَّ استخدام «بسم الله الرحمن الرحيم» تأخّر الى السنة الثامنة من البعثة المحمدية، عندما تمّ إنتاج (سورة النمل) التي ورد فيها ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦٥﴾﴾، فمن هذه اللحظة بدأ استخدام «بسم الله الرحمن الرحيم» كفاتحة للسور، وقد ورد عن عبد الله بن مسعود قوله: «كُنَّا لَا نَعْلَمُ فَصْلَ مَا بَيْنَ السُّورَتَيْنِ حَتَّى نَزَلَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (أسباب النزول: ٩).

ويكشف لنا حديث ابن عائشة الذي رواه الطبري في (كتاب الأوائل) نشوء وتطور آية «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: حدثني أبي أَنَّ قَرِيشاً كَتَبَتْ فِي جَاهِلِيَّتِهَا «بِسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَكْتُبُ كَذَلِكَ، ثُمَّ نَزَلَتْ «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرَسَاهَا»، فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ فِي صُدُورِ الْكُتُبِ «بِسْمِ اللَّهِ»، ثُمَّ نَزَلَتْ ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ فَكُتِبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ نَزَلَتْ ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦٥﴾﴾، فَجَعَلَ ذَلِكَ فِي صُدُورِ الْكُتُبِ، ثُمَّ كُتِبَ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ سِوَى بَرَاءَةِ لِتَشْبِهِهَا بِالْأَنْفَالِ، وَرَوَى الشَّعْبِيُّ وَالْأَعْمَشُ نَحْوَ ذَلِكَ (ص ٦٩)، وَقَوْلُهُ ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِسْمِ اللَّهِ أَوْ بِسْمِ الرَّحْمَنِ بَعْدَ أَنْ تَمَّ الْإِعْلَانُ عَنْ مَسَاوَاةِ اللَّهِ لِلرَّحْمَنِ.

وهذا الحديث يكشف عن النمو التدريجي للوعي الاسلامي، وهو نمو يرتبط

إرتباطاً وثيقاً بالوضع الاجتماعي والسياسي للمسلمين في شبه الجزيرة العربية بشكل عام، وفي مكة بشكل خاص.

وقد أثبت في كتابي (مسلمة الحنفي) أن دخول الرحمن ضمن المنظومة المعرفية الإسلامية حدث نتيجة زيارة قام بها مسلمة الحنفي الى مكة قبل الهجرة، قرب السنة الثامنة تحديداً، وأن لقاء تم بين مسلمة ومحمد نتج عنه تحالف حنفي جمع إلهين متميزين هما الرحمن والله في شعار واحد، لذا تم انتاج آية ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾، أي أن محمد بن عبد الله كان يدعو الى عبادة (الله فقط) الى السنة الثامنة للدعوة، الا أنه بعد تحالفه مع مسلمة الحنفي بدأ يدعو لله وللرحمن باعتبارهما إلهين متساويين، وأن اسم كل منهما يشير الى الآخر.

وقد ذكر (كانون سل) خبراً دون أن يشير الى مصدره، قال: «ورد أن اليهود الذين كان محمد يصادقهم في مكة»، قالوا له أن الله غالباً ما يسمى (الرحمن) في الأسفار الخمسة، وقد لاحظوا أنه لم يستعمل هذا المصطلح، وفيما بعد جاءت الآية: - ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (تطور القرآن التاريخي: ٤٦)، وهذا الخبر يتقاطع مع ما أورده ابن منظور عن الزجاج من أن «الرحمن إسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأنّ إعلان بناء من أبنية المبالغة» (اللسان: مادة رحم).

وجملة «لم يكونوا يعرفونه» لا تحدّد هوية من هم المقصودون بالذين يعرفونه، هل هم اليهود أم الأحناف؟ ومن غير المنطقي أن يكون المقصود بها اليهود، لذا لا أستبعد أن يكون المراد بهم هنا الأحناف، وبالتحديد أحناف الحجاز الذين كانت رحاهم تدور في المثلث الجغرافي (مكة - الطائف - يثرب).

فإذا ما تمكّن الباحثون في حقل (تاريخ القرآن) من توثيق الخبر الذي ذكره (كانون سل)، فإنه سيكشف حتماً عن لقاء تمّ بين مسلمة الحنفي ومحمد بن عبد الله حضر فيه بعض اليهود أيضاً، وسيكون ذلك أكثر منطقية، رغم أنني لا أعتقد بعدم إطلاع كل من مسلمة الحنفي ومحمد بن عبد الله على الأسفار الخمسة أو بعضها.

إلا أنّ إدخال محمد بن عبد الله اسم (الرحمن) ضمن المنظومة المعرفية الإسلامية جعل دهرمي قريش ووثنيها أكثر حدة في الصراع معه، لعلمهم بأن (الرحمن) اله اليمامة وليس إله مكة.

ذكر الواقدي على لسان عبد الرحمن بن عوف حديثه مع أمية بن خلف وكان صديقه قبل الإسلام، قال: «كان اسمي عبد عمرو - وعمرو اسم صنم - فلما جاء الإسلام سُمِّيْتُ بعبد الرحمن، فكان - أمية بن خلف - يلقاني فيقول: يا عبد عمرو، فلا أجيبه. فيقول: إني لا أقول لك عبد الرحمن، إن مسيلمة باليمامة يتسمّى بالرحمن فأنا لا أدعوك إليه. فكان يدعوني عبد الإله» (المغازي: ٩٢).

كانوا يعتبرون الرحمن الهاً خاصاً باليمامة له من يدعو له هو مسلمة الحنفي، وقد ناقشت الجانب المناطقي لهذا التفكير، وكيف أنّ قريش من الناحية الاقتصادية يمكن أن تكون تبعاً لليمامة، وهو ما كان يشكّل مصدر قلق لأهل مكة.

هذا يجعلني أتوصّل الى حقيقتين تاريخيتين هما:

أَنَّ سورة الفاتحة كانت بلا «بسم الله الرحمن الرحيم» الى السنة الثامنة للدعوة المحمدية.

أَنَّ السورة كانت تخلو ايضاً من اسم الرحمن، وهذا يعني أَنَّ آية «الرحمن الرحيم» لم يكن لها وجود في النصّ الإبتداء.

إلا أنَّ القول بهاتين الحقيقتين، يجعلنا أمام إشكال جديد، فزوال آية
البسملة، إضافة الى زوال آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ يجعل السورة تتكوّن من
خمس آيات، وهذا يتضارب مع اسمها «السبع المثاني»، علما أنَّ هذه التسمية
أُطلقت على سورة الفاتحة في مكة قبل الهجرة، وقبل دخول اسم الرحمن
أيضا.

الفصل الثاني:

ما تكرر نزوله من القرآن

في هذا الفصل سأحاول قدر الإمكان التركيز على جانب واحد من جوانب علوم القرآن التي حفلت بها كتب التفسير، وهو ما تمّ تعريفه لاحقاً بعملية «تكرار النزول»، أي أنّ ثمة سوراً وآياتٍ من القرآن تكرر نزولها لأكثر من مرة، وأنّ بعضاً من هذه السور والآيات قد نزل بدءاً في مكة قبل الهجرة، ثمّ تكرر نزولها بعد الهجرة إلى المدينة، هذا وقد تمّ تدوين أخبار بعض السور والآيات التي تكرر نزولها، وكان لبعض المفسرين آراء ووجهات نظر مختلفة أزاء الأسباب التي كانت وراء عملية تكرار النزول.

افرد السيوطي في (الإتقان: ١ / ٣٥ - ٣٦) باباً تحت عنوان (ما تكرر نزوله)، أورد فيه السور والآيات التي تكرر نزولها، وذكر إلى جانب ذلك آراء بعض المفسرين في تفسير عملية تكرار النزول قال: -

- ١ - ورد عن ابن الحصار قوله: «قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة»، وذكر من ذلك خواتيم سورة (النحر)، وأول سورة (الروم).
- ٢ - وذكر ابن كثير آية (الروح).

٣ - وذكر قوم أنّ (الفاتحة) من السور التي تكرر نزولها، وعند تقسيم سور

القرآن الى مكة ومدنية لم يذكرها محمد سالم محيسن ضمن أي من الحقلين، وبرّر ذلك بالقول بنزولها مرتين مرة في مكة، ومرة بالمدينة (تاريخ القرآن الكريم: ٥٤)، وقال ابن كثير: «يقال أنّها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة»، بل ذكر ابن كثير خبراً جاء فيه أنّ السورة لم تنزل دفعة واحدة، وإنّما كان نزولها على مرحلتين، قال: «وحكى أبو الليث السمرقندي أنّ نصفها نزل بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة» (تفسير القرآن العظيم: ٥٤)، وهو رأي بالغ الخطورة والأهمية، فالقول به يعني أنّ السورة لم تتكرّر، وأنّ النزول الثاني لها كان إضافة طرأت على النزول الأوّل، وأنّ السورة لم تكتمل الا مع النزول الثاني بالمدينة.

١ - وقال الزركشي في البرهان «قد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه وخوف نسيانه»، ثم ذكر منه آية (الروح) وقوله: ﴿وَأَقْرِءْ الْقَلَمَ وَكُفِّي الْتَهَارُ﴾ الآية. قال: فإنّ سورة (الإسراء) و(هود) مكّيتان، وسبب نزولهما يدل على إنّهما نزلتا بالمدينة، ولهذا أشكل ذلك على بعضهم، ولا إشكال لأنّها نزلت مرة بعد مرة، وكذلك ما ورد في سورة (الإخلاص) من أنّها جواب للمشرّكين بمكة، وجواب لأهل الكتاب بالمدينة.

٢ - وفي (جمال القراء) للسخاوي بعد أن حكى القول بنزول (الفاتحة) مرتين «فإن قيل فما فائدة نزولها مرة ثانية؟ قلت: يجوز أن تكون نزلت أوّل مرة على حرف واحد، ونزلت الثانية ببقية وجوها نحو ملك ومالك والسرّاط والصراط ونحو ذلك».

٣ - عن كتاب (الكفيل بمعاني التنزيل)، قال صاحبه في باب الحديث عن نزول سورة (الفاتحة) «لعلّهم يعنون بنزولها مرتين أنّ جبريل نزل حين حوّلت القبلة فأخبر الرسول ﷺ، أنّ الفاتحة ركن في الصلاة كما كانت بمكة، فظن

ذلك نزولا لها مرة أخرى، أو أقرأ فيها قراءة أخرى لم يقرئها له بمكة، فظن ذلك إنزالاً.

أخلص من هذه الاقتباسات الى نقطة أساسية في بحثي هذا، وهي أنّ سورة الفاتحة قد تكرّر نزولها لأكثر من مرة، مرة في مكة، ومرة في المدينة.

الفصل الثالث:

قراءة في تكرر نزول الفاتحة

أ - إنتاج السورة على مرحلتين

ما أريد التأكيد عليه في هذا الفصل هو أنّ عملية تكرّر إنتاج سورة الفاتحة، أو تكرّر نزولها بحسب الرواية الإسلامية لا يشير إلى إعادة أو تكرار النصّ كما هو، علماً أنّه كان هناك من قال بذلك، وقد خلق تكرّر نزول النصّ كما هو - دون تعديل أو إضافة - إشكالات هامشية كالتّي أوردها ابن الحفيد، أراني في غنى عن ذكرها (انظر الدر النضيد: ١١٧ - ١١٨).

ومحاولة في إثبات أنّ عملية إنتاج سورة الفاتحة كانت على مرحلتين، وأنّ المرحلة الأولى تمّت في مكة، بينما تمّت المرحلة الثانية في المدينة، وحتى لا يكون حديثي إقحام عملية الإنتاج المرحلي قسراً على التاريخ الحقيقي لها فإنّني أبدأ قراءتي إعتماً على ما ذكره (السخاوي) من أنّ التكرار قد يشير إلى نزول السورة بقراءة أخرى، رغم أنّه اكتفى بجعل ملك مالك، والصراط السراط، إلا أنّ قوله يترك الباب مفتوحاً، فهو على حقّ في موضوعه القراءة الأخرى، لكن، وهذا ما أريد الإشارة إليه، إنّها قراءة لا تتوقّف على تغيير في الشكل فقط، وهو ما أشار إليه السمرقندي بخصوص سورة الفاتحة حين قال: «بأنّ نصفها نزل



بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة»، دون أن يشير للجزء الذي نزل بمكة، أو للجزء الذي نزل بالمدينة، وكما قلت فإنَّ التغيير لا يقتصر على الشكل، بل يتجاوزهُ الى المضمون أيضاً، بل أنَّ الإضافة تشير ضمناً الى انفتاح في الرؤيا نتيجةً لحدثٍ إجتماعي كان سبباً وراء إعادة عملية إنتاج النصّ، وهنا أقرب من رأي صاحب كتاب (الكفيل بمعاني التنزيل) الذي حاول أن يربط عملية تكرار إنتاج النصّ بحادثة تحويل القبلة، باعتبار أنَّ (الفاتحة) هي سورة (الصلاة).

ب - تحويل القبلة وإشكال التكرّر

وكما نرى فإنَّ بعض الروايات الإسلامية قد أكّدت ولادة سورة الفاتحة على مراحل، قرأها بعضهم تكراراً، بينما أشار البعض الآخر الى نموها وصيرورتها أثناء عملية إعادة إنتاجها، وقال البعض بأنَّ حدثاً إجتماعياً كان سبباً رئيساً وراء عملية إعادة إنتاجها ثانية، وأتفق الذين قالوا بتكرّر نزول السورة على أنَّ المرّة الثانية كانت مع تحويل القبلة (الدر النضيد: ١١٦)، وهو ما لا أراه يتفق موضوعياً وتاريخياً مع حقيقة إعادة إنتاج النصّ.

١ - إنَّ حادثة تغيير القبلة لا تستوجب سوى إعادة قراءتها الأولى دون أيّ تعديل، ودون أيّ إضافة، ودون أيّ توسيع في الرؤيا، لأنَّ الصلاة بقيت كما هي لم تتغيّر، لأنَّ صورة الله لم تتغيّر، كما لم تطرأ أي إضافة على مفهوم التوحيد الذي كان مأخوذاً به كروياً عندما كان المسلمون في مكة، وعندما كانت الكعبة هي القبلة في الصلاة.

٢ - إضافة الى ذلك نجد في القرآن ما يشير صراحة الى عملية تغيير القبلة: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» الى قوله: ﴿وَلَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤ - ١٥٠)، أي أنَّ حادثة التغيير صاحبها نتاج نصّي أيضاً.

من هنا أستبعد أن تكون عملية الإضافة أو عملية التغير التي طرأت على نصّ الفاتحة من حيث المضمون كان متّصلاً بعملية تغيير إتجاه القبلة من بيت المقدس في فلسطين الى الكعبة في مكة . والقول بذلك يعني أنّ حدثاً إجتماعياً آخر كان أكثر مدعاةً لإعادة إنتاج النصّ، وليس هذا فحسب، بل أنّ الحدث الإجتماعي ذاك يجعل من إعادة إنتاج النصّ ضرورةً إجتماعيةً ومنطقيةً في نفس الوقت .

ج - السورة تخلو من إسم الرحمن

وهنا أعود لأنكيء على ما ورد في تفسير ابن كثير نقلاً عن القرطبي الذي أورد رأي السمرقندي القائل بنزول نصفها بمكة، ونصفها الآخر بالمدينة، وأحب أن أتوقّف قليلاً هنا، محاولاً قدر الإمكان التوصل الى النصف الثاني من السورة الذي تمّ إنتاجه بالمدينة .

لقد أوضحت في الفصل الأوّل من المبحث الرابع كيف أنّ سورة الفاتحة كانت بدون «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإذا ما إعتمدنا على شكل النصّ النهائي كما هو في مصحف عثمان، فإنّ البسملة آية من آيات السورة، وتأخّر دخول إسم الرحمن ضمن المنظومة المعرفية الإسلامية الى السنة الثامنة للبعثة، يعني أنّ السورة كانت تخلو من هذا الإسم أيضاً، وهذا يعني أنّ سورة الفاتحة إضافةً الى آية البسملة كانت بدون آية «الرحمن الرحيم» التي تحمل الرقم (٣) ضمن تسلسل آيات السورة بحسب رواية مصحف عثمان .

والقول بأنّ نصف سورة الفاتحة نزل بالمدينة يعني أن إسم الرحمن تأخّر دخوله فيها، وأنّه لم يكن جزءاً منها طيلة وجود محمد بن عبد الله في مكة، واستمرت السورة بدون إسم (الرحمن) الى أن تمّ إضافته لاحقاً - بعد هجرته الى المدينة - نتيجةً لحدثٍ إجتماعيٍ إستوجب ذلك .

د - قدوم وفد اليمن الى المدينة

والإضافة التي طرأت على النصّ بإدخال إسم (الرحمن) تساهم في تمتين الصلة بين المسلمين الذين يعبدون الله - في الحجاز وأماكن من تهامة - وبين باقي أطراف الحنفية الأخرى في شبه الجزيرة العربية التي كانت تعبد الرحمن، الأمر الذي جعل المسلمين يشعرون بالقوة والسند، يمكن تحسّس ذلك في قول بجير بن زهير بن أبي سُلمى :

والله أكرمنا وأظهر ديننا وأعزّنا بعبادة الرحمن

(ابن هشام : ١٠٢ / ٤)

أي أنّ (عبادة الرحمن) - وهي إضافة جديدة - كانت داعمة للمسلمين في إظهار دين الله، وهنا تصعد الى درجة الاحتمال الأرجح حادثة قدوم وفد اليمن الى يثرب في السنة التاسعة للهجرة.

كان محمد بن عبد الله ينتظر قدوم أهل اليمن وإسنادهم منذ السنة الخامسة للهجرة، فقد ورد أنّه حمل فأساً أيام كان المسلمون يحفرون الخندق إستعداداً لمواجهة الأحزاب، وأنّه ضرب الأرض ثلاثاً قال في الأولى يفتح الله بها الروم، وقال في الثانية يفتح الله بها فارس، أمّا الثالثة فقال فيها: «هذه الضربة يأتي الله بأهل اليمن أحواناً وأنصاراً» (فتوح مصر : ٤٣٣). وهي إشارة واضحة الى أنّ الحنفية لا تنتصر إلا إذا تحالفت الأطياف كلّها، ودخلت في خندق واحد لمواجهة الأخطار المشتركة.

أفرد مسلم في صحيحه باباً تحت عنوان «تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه»، أورد فيه ثلاثة أحاديث لمحمد بن عبد الله بخصوصهم، جاء في الحديث الأوّل عن عبد الله بن مسعود قال: «أشار النبي بيده نحو اليمن، فقال: ألا أنّ الإيمان هاهنا»، وجاء في الحديث الثاني عن أبي هريرة قال: قال



رسول الله: «جاء أهل اليمن. هم أَرْقُ أفئدة. الإيمان يمان. والحكمة يمانية»، وجاء في الحديث الثالث عن أبي هريرة: «الإيمان يمان» (مختصر صحيح مسلم: ١٦ - ١٧).

إضافة الى ذلك ورد أيضاً في حديث آخر ذكره ابن الحفيد أنَّ محمد بن عبد الله قال: «إنِّي لأجد نَفَسَ الرحمن من جانب اليمن» (الدر النضيد: ٧٩).

إنَّ رغبة محمد بقدوم أهل اليمن الى يثرب، واحتفائه المبالغ فيه لهم عند قدومهم، حتى أنه جعل الإيمان يمان، وقوله إنِّي «لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن»، وأركّز الإنتباه هنا على (نفس الرحمن)، كلّ هذه القرائن تدفعني الى الاعتقاد بأنَّ الإضافة التي تحقّقت على سورة الفاتحة كانت متزامنة مع قدوم أهل اليمن المرغوب فيهم، والإضافة كانت في إدخال إسم الرحمن ضمن السورة، ليس فقط داخل البسملة، بل بإدخال آية ﴿الْكَافِرُ الرَّحْمَنُ﴾ التي تحمل الرقم (٣) في النص المدوّن في مصحف عثمان.

أي تمّ إدخال اسم (الرحمن) كجزء من السورة، وهو تغيير لا يقتصر على شكل القراءة فقط، بل يمتدّ الى المضمون أيضاً، وهذا التغيير يعني أنَّ اسم الرحمن لم يكن يُذكر في صلاة المسلمين الى لحظة إعادة إنتاج سورة الفاتحة في السنة التاسعة للهجرة، وهذا يجعل الأحاديث الواردة حول قراءة محمد لسورة الحمد بدون البسملة أكثر منطقية وأكثر عقلانية.

وإذا ما كان ذكر اسم (الرحمن) في السور السابقة للتعديل الجديد - الذي طرأ على سورة الفاتحة - بدءاً بسورة (الإسراء) في السنة الثامنة للبعثة وما بعدها كإشارة ضمنية للتحالف الاجتماعي بين أطراف الحنفية في شبه الجزيرة العربية، فإنَّ إدخال إسم الرحمن ضمن بنية صلاة المسلمين رسّخ تدريجياً - نتيجة لتكرار قراءة النصّ الجديد في الصلاة بشكل يومي، ونتيجة لهيمنة تيار



المسلمين على كلّ الأطياف الأخرى للحنيفية في شبه الجزيرة العربية بعد وفاة محمد بن عبد الله، وتحت تأثير القمع المؤسّساتي الرافض لكلّ ما من شأنه أن يفتح نافذة البدايات الإجتماعية الأولى، إضافة لبعده الزمن أيضاً، كلّ هذه الأسباب مجتمعة - رسّخت فهماً جديداً عن الله لم يكن موجوداً من قبل، فقد أصبح الله وفق النصّ الجديد هو المهيمن، وبعد أن كان (الله = الرحمن)، بدأت صورة الرحمن كإله مستقلّ تبتعد وتخفت، وبدأت عبادته تنضوي تحت لبوسٍ آخر، بل تحوّل الرحمن ذاته تدريجياً إلى اسم من أسماء الله ضمن بنية العقل الاسلامي، أي أنّ عبادة الله على الصعيد الإجتماعي إبتلعت عبادة الرحمن، وأصبح التصريح بالرحمن كإله خاص خروجاً على المنظومة المعرفية الإسلامية، أي إرتداداً، وكان جزاء الإرتداد استنابة المرتد فلان أصرَّ عُرِضَ للقتل، وفي أحيان كان المصرّحين يُقتلون دون إستنابة، كما حدث مع أصحاب مسلمة الحنفي في الكوفة.

أعتقد أنّ أهم أسباب قدرة المسلمين على إختراق الفرس والروم - بعد وفاة محمد بن عبد الله - كان بفضل صهر عبادة الرحمن في مسبك عبادة الله. كما أنّ هذه الآلية في التعامل مع الآلهة الأخرى سيتمّ إستثمارها لاحقاً في إحتواء كلّ من الفلسفة الإغريقية والتصوّف الشرقي، أي أنّ عبادة الله إمتلكنا قدرة إحتواء الآخر قسراً، وإعادة صهره في مسبكها، وهذه الممارسة أسست لاحقاً إمكانية إعادة صياغة صورة الله وفق الإضافات المتجدّدة (محاولات ربط القرآن بآخر الإكتشافات العلمية نموذجاً)، أي جعلت الله إلهاً حياً، وقابلاً للنمو كمعرفة.

الفصل الرابع:

سورة الفاتحة كما كانت تُقرأ أول مرة

بعد هذه الرحلة الصعبة، أصبح لدي من القناعة ما يدفعني الى تصوّر الصيغة الأولى لسورة (الفاتحة) وفق قراءة زيد بن عمرو بن نفيل، والجيل الأول من الأحناف في الحجاز كورقة بن نوفل وأمّية بن أبي الصلت وآخرين، وما سأقوم به هنا هو تثبيت هذه الصيغة، متكثراً على نتائج المباحث السابقة، وبالتأكيد فإنّ اسم السورة لم يكن (الفاتحة)، لأنّ هذا الاسم إقترن بعملية تدوينها ضمن المصحف أكثر من إقترانه بتاريخ إنتاجها على صعيد الوعي الحنفي، وأنها إما أن تكون تحت إسم (سورة الحمد)، فقد ورد في الحديث: «إذا قرأتم الحمد» (الإتقان: ١/ ٥٣)، أو إنكاء على أول كلمة فيها، ولا تزال تسمية العديد من سور القرآن قائمة على أساس الكلمة الأولى فيها مثل سورة العصر، القارعة، العاديات، التين، الضحى، ألم نشرح، الليل، الشمس، الفجر، عبس، الرحمن، الخ. أو لعلّها كانت تحت إسم سورة الصلاة، أو الصلاة فقط.

أ - الصيغة الأولى للسورة

«الحمد لله رب العالمين (١) ملك يوم الدين (٢) وإياك نعبد (٣) وإياك



نستعين (٤) أرشدنا الصراط المستقيم (٥) صراط من أنعمت عليهم (٦) غير المغضوب عليهم وغير الضالين (٧).
وبهذا يتحقق مفهوم السبع المثاني أيضا.

ب - تخريج النص

(٢) ﴿مَلِكٌ﴾ بحسب قراءة ابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وأبي بكر (المصاحف: ١٠٤)، ذكر ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤ هـ) إتفاق المصاحف الى كتابة (مالك) بغير ألف (ملك) (الجامع لما يحتاج إليه: ٨٧).

(٥) «أرشدنا الصراط» بدلا من ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ بحسب قراءة عبد الله بن مسعود (مختصر في شواذ القرآن: ١). كان أبو حنيفة يرى أن القراءة الشاذة حجة، من حيث أنها وإن لم تكن قرآنا فهي قول الصحابي، وقول الصحابي حجة، لأنه لم يقله إلا بتوفيق من النبي، فينزل بمنزلة خبر الآحاد (الدر النضيد: ٤٦).

(٦) «من أنعمت» بدلا من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ بحسب قراءة عبد الله بن مسعود (مختصر في شواذ القرآن: ١)، وبحسب قراءة عمر بن الخطاب أيضا (المصاحف: ٦٠ - ٦١).

(٧) «وغير الضالين» بدلا من ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ بحسب قراءة عمر بن الخطاب (المصاحف: ٦٠ - ٦١).

وكما نلاحظ فإن النص الأول للسورة كان خالياً من ذكر الرحمن، لتأخر دخوله ضمن المنظومة المعرفية الإسلامية الى السنة الثامنة للبعثة، وبالتالي فإننا لن نجد في النص آية ﴿يَسْمِعُ أَقْوَمَ الْكَلِمِ﴾، وكذلك لن نجد آية ﴿الْكَافِرِ الْكَلْبِ﴾.

أما من حيث عدد آيات السورة، فيمكن أن تكون سبعة كما في التقسيم الذي

وضعناه لها، وبهذا تتوافق مع رؤية المؤسسة الرسمية باعتبار سورة الفاتحة هي المقصودة بالسبع المثاني، رغم ميلي الى رأي علي نصوح الطاهر في أنّ (السبع المثاني) لا يقصد بها سورة الفاتحة، وإنّما هي مجموعة سور أخرى قد تكون سور (الحواميم) السبع.

الملاحق

الملحق رقم (١)

إختفاء الفاتحة في مصحف علي بن أبي طالب وجعفر الصادق

بحسب ما ذكرت كتب التفسير فإن علي بن أبي طالب كان يقول بأن الفاتحة أول السور نزولاً، وآته رتب السور في مصحفه على أساس النزول.

غير أن ما لفت إنتباهي هو خلو مصحفه من سورة الفاتحة، وقد تكرر اختفاء السورة في مصحف جعفر الصادق أيضاً، ولم أجد تبريراً أو حتى إشارة لهذا الإختفاء في الكتب التي بين يدي، فبادرت الى إرسال رسالة الى السيد آية الله السيستاني، أحد مراجع الشيعة في العراق في (٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٩)، أسأله عن ذلك، وانتظرت قبل أن يصل الرد، مكتوباً بخط اليد، ومصوراً تصويراً، دون أن تكون هناك إشارة الى مرسل الرسالة، فلعلها صادرة عن السيد مباشرة، ولعلها أن تكون صادرة عن أحد رجال مكتبه الإعلامي، ويبدو أن النسخة المصورة كُتبت عن نسخة أصل، ففيها بتر يشير الى سقوط سطر أو بعض كلمات بعد جملة «وفي المناقب»، وقد شككت الرسالة في ما نُسب لعلي بن أبي طالب. ولعدم الإشارة الى هذا الموضوع في ما بين يدي من المراجع الإسلامية، إكتفيت بالإعتماد على ما نُقل عن مصحف عبد الله بن مسعود، بإعتبارها حجةً مصرحاً بها، رغم أن إختفاء السورة في مصحف كل من علي بن أبي طالب وجعفر الصادق يدعم البحث أيضاً، كما أن القول بأنها أول السور نزولاً يمكن قراءته بطريقة أخرى كما أثبتنا ذلك، وما أنا أضع الرسالتين معا في هذا الملحق للتوثيق فقط ليس إلا.



[1]

رسالتني الى السيد آية الله علي السيستاني

السيد آية الله علي السيستاني المحترم

تحية طيبة

ذكر السيوطي في (الاتقان في علوم القرآن) خمسة وعشرين اسما لسورة الفاتحة (١ / ٥٢ - ٥٣).

نقلا عن (الفهرست) لابن النديم، وعن (تاريخ يعقوبي)، يورد الزنجاني في (تاريخ القرآن) ترتيب سور القرآن في مصحف الإمام علي بن أبي طالب فيذكر (١١٦) سورة دون ان يرد فيها ذكر لسورة الفاتحة (ص ٦٩ - ٧١)، بينما يورد الزنجاني في الفصل الثامن من (تاريخ القرآن) نقلا عن (تفسير الشهرستاني) ترتيب السور في مصحف الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق فيذكر (١١٣) سورة (ص ٧٨ - ٧٩) دون ان يكون هناك ذكر لسورة الفاتحة، ودون أن يشير الزنجاني لاختلافها في المصحفين.

فهل كان لسورة الفاتحة أسماء أخرى غير التي ذكرها السيوطي في الاتقان؟ ما هي؟ وإن لم يكن هناك غير ما تم ذكره، فكيف تقرأون غياب ذكرها في مصحف الإمامين؟

٢٠٠٩/١٠/٢٠

جمال علي الحلاق

[٢]

الرد على رسالتي من قبل السيد السيستاني أو أحد رجال مكتبه الإعلامي

باسمه تعالى

لم يثبت صحّة ما نُسِبَ الى الإمامين، ولعلّ إسقاط الفاتحة من السور مبني على مسلك القوم، وإلا ففي مذهب أهل البيت عليهم السلام تكون سورة الفاتحة من أهمّ السور، بل هي أم الكتاب، وقد وردت روايات كثيرة في فضلها والآثار المترتبة على قراءتها كشفاء المريض، بل ورد عن الإمام الصادق عليه السلام لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة ثم ردت فيه الروح ما كان عجبا.

وفي المناقب ابين لإحدى يدي هشام بن عدي الهمداني في حرب صفين فأخذ علي عليه السلام يده وقرأ شيئا وألصقها فقال: يا أمير المؤمنين ما قرأت؟ قال: فاتحة الكتاب. فكأنه استقلّها فانفصلت يده نصفين فتركه علي عليه السلام ومضى.

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال لجابر بن عبد الله: يا جابر ألا أعلمك فضل سورة أنزلها الله في كتابه. قال: فقال جابر: بلى بأبي وأمي يا رسول الله علّمنيها. قال فعلمه الحمد لله أم الكتاب، ثم قال له: يا جابر ألا أخبرك عنها. قال: بلى بأبي وأمي فأخبرني. قال: هي شفاء من كل داء إلا السام يعني الموت.

١٦ / كانون الثاني / ٢٠١٠

الملحق رقم (٢)

سورتي الحفد والخلع

كما وردتا في (تاريخ القرآن : ٢٦٦ - ٢٦٧) لنولدكه

(١)

نص سورة الحفد

بسم الله الرحمن الرحيم

(اللهم إني أعبدُ، ولك نصلي ونسجدُ، وإليك نسعى ونحفِذُ، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحقٌ).

هذا النص وفق رواية أبي وعبد الله مسعود، وقد ورد أيضا «نخشى عذابك الجد»، كما ورد في قراءة أخرى «نخشى نعمتك» (تفسير شبر : ١٦).

(٢)

نص سورة الخلع

بسم الله الرحمن الرحيم

(اللهم إنا نستعينك، ونستغفرُك، ونثني عليك، ولا نكفرُك، ونخلعُ ونتركُ من يفجرُك).

كما ورد في رواية أخرى «ونثني عليك الخير» (تفسير شبر : ١٦).



يشير الشيخ محمد جواد البلاغي الى أن السورتين مما أُلصق بالقرآن، وأنهما - بحسب الروايات - كانتا مكتوبتين في مصحف ابن عباس وزيد بن ثابت وقراءة أبي وأبي موسى الأشعري (تفسير شبر: ١٦)، غير أن ابن قتيبة يسميها (دعاء القنوت)، ويتحدّث عنهما باعتبارهما زيادة في مصحف أبي بن كعب فقط، كما لو أنه انفرد بكتابة السورتين في مصحفه، مشيراً الى أنّ محمد بن عبد الله كان دائم القراءة لهما في الصلاة، ويعتقد الصحابة - أو هذا ما وصل إلينا عن طريق المؤسّسة - أنهما دعاء، وأنّ قراءة محمد لهما كانت من هذه الجهة، أي أنّ الصحابة لا يقرّون بكونهما من الوحي، وبالتالي فهما ليسا من القرآن (تأويل مشكل القرآن: ٣٤ - ٣٥).

ما أراه هنا أنّهما نتاجاً للحنيفية الأولى، قبل أن يتأسس اسم الله، وهي فترة أنتجت نصوصاً عديدة - ضاعت أو تناساها المؤرخون - على شكل أدعية فقط، لعدم نضج مفهوم النبوة كما تمّ على يد الجيل الثاني من الأحناف، أي أنّ النصّين كانا معروفين عندما كان (اللهم) هو الاسم الأوحد للإله التجريدي، وقد تحسّس الشيخ محمد جواد البلاغي شيئاً من ذلك عندما أشار الى أنّ الخلع يناسب الأوثان، ويبدو أنّ الصحابة الأوائل كانوا على علم بذلك أيضاً، وهو الذي جعلهم يتوقّفون عن إدخالهما ضمن القرآن رغم قراءتهم للنصّين باستثناء أبي بن كعب إذا ما اعتمدنا رواية ابن قتيبة.

مصادر الكتاب

حرف الألف

- ١ - الإبانة عن أصول الديانة، للإمام أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (ت ٣٢٤ هـ)، ط ١ - ٢٠٠٣، دار ابن حزم - بيروت - لبنان.
- ٢ - الإتقان في علوم القرآن، شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الندوة الجديدة - بيروت.
- ٣ - الآثار الكاملة، عبد الله بن المقفّع، جمعها وشرحها وقدم لها الدكتور عمر الطباع، ط ١ - ١٩٩٧، دار الأرقم - بيروت - لبنان.
- ٤ - أديان العرب وخرافاتهم، الأب أنستانس ماري الكرمللي، تحقيق وتقديم د. وليد محمود خالص، ط ١ - ٢٠٠٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٥ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأبي العباس شهاب الدين أحمد من محمد القسطلاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- ٦ - كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية، لأبي علي محمد بن المستنير قطرب (ت ٢٠٦ هـ)، حققه وقدم له الدكتور حنا جميل حداد، ط ١ - ١٩٨٥، مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن.
- ٧ - ديوان الأساطير، نقله الى العربية وعلّق عليه قاسم الشوّاف، قدّم له وأشرف عليه أدونيس، ط ١ - ١٩٩٧، دار الساقي - بيروت - لبنان.

٨ - أساطير الحب والجمال عند اليونان، دريني خشبة، ط ١ - ١٩٨٣، دار التنوير - بيروت - لبنان.

٩ - أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، تحقيق عبد الله المنشاوي، ط ١ - ٢٠٠١، دار المنار - القاهرة.

١٠ - الاستيعاب في تمييز الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري.

١١ - أسرار التكرار في القرآن، المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى (ت نحو ٥٠٥ هـ)، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة - القاهرة - مصر.

١٢ - لاشتقاق، لابن دريد (ت ٣٢١ هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط ٢ - ١٩٧٩، منشورات مكتبة المثنى - بغداد - العراق.

١٣ - أشعار الشعراء الستة الجاهليين، للأعلم الشنمري (٤٧٦ هـ)، ط - ١٩٩٠، دار الفكر - بيروت - لبنان.

١٤ - كتاب الأصنام، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ)، تحقيق أحمد زكي باشا، ط ٢ - ١٩٢٤، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

١٥ - أطواق الذهب في المواعظ والخطب، للعلامة جابر الله الزمخشري، قدم له وحققه عبد اللطيف شرارة، ط ١ - ١٩٨٥، دار ألف باء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

١٦ - الاعتصام بحبل الله المتين، تأليف إمام الجهاد والاجتهاد المنصور بالله الامام القاسم بن محمد بن علي خلافته في اليمن من سنة (١٠٠٦ - ١٠٢٩ هـ)، ط - ١٩٨٧، مكتبة اليمن الكبرى - صنعاء - اليمن.

١٧ - إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، على هامش كتاب الاتقان

في علوم القرآن، دار الندوة الجديدة - بيروت - لبنان.

١٨ - ديوان الأعشى الأكبر (ت ٧ هـ)، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط ١ - ٢٠٠٥، دار المعرفة - بيروت - لبنان.

١٩ - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للمحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، ط - ١٩٨٣، دار الكتاب العربي - بيروت.

٢٠ - الأقباس النيرة في سيرة فضائل العشرة المبشرة كما في طبقات ابن سعد، تقديم جميل ابراهيم حبيب، ط ١ - ١٩٨٩، طبع الدار العربية - بغداد.

٢١ - كتاب الإكليل، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت نحو ٣٥٠ هـ)، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوخ الحوالي.

٢٢ - أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦ هـ)، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط - ٢٠٠٥، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

٢٣ - ديوان امرئ القيس، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم - بيروت - لبنان.

٢٤ - انتبهوا لنبوّة دانيال، ط ١ - ١٩٩٩، Watch Tower Bible & Tract Society Of Pennsylvania

٢٥ - أنساب الأشراف، تصنيف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق د. محمد حميد الله، سلسلة ذخائر العرب/ ٢٧، دار المعارف بمصر.

٢٦ - أوائل السور في القرآن الكريم، علي نصوح الطاهر، ط - ١٩٥٤.

٢٧ - الأوائل، لأبي عروبة الحسين بن أبي معشر محمد بن مودود الحرّاني (ت ٣١٨ هـ)، تحقيق وتعليق مشعل بن باني الجبرين المطيري، ط ١ -

٢٠٠٣، دار ابن حزم - بيروت - لبنان.

٢٨ - الأوائل، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، وضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، ط ١ - ١٩٩٧، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٢٩ - كتاب الأوائل، للمحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق وتخرّيج محمد شكور بن محمود الحاجي أمّير، ط ١ - ١٩٨٣، دار الفرقان - مؤسسة الرسالة - بيروت.

حرف الباء

٣٠ - باب ذكر المعتزلة، لأحمد بن يحيى بن المرتضى، اعتنى بتصحيحه توما أرندل، دار صادر - بيروت.

٣١ - البداية والنهاية، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير.

حرف التاء

٣٢ - تاريخ العرب في الإسلام، د. جواد علي، تقديم فرحان صالح، ط ٢ - ١٩٨٨، دار الحداثة للطباعة والنشر.

٣٣ - تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، محمد لطفي جمعه، المكتبة العلمية - بيروت.

٣٤ - تاريخ القرآن، أبو عبد الله الزنجاني، قدّم له الأستاذ أحمد أمين، ط ٣ - ١٩٦٩، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٣٥ - تاريخ القرآن، إبراهيم الأبياري، ط ٣ - ١٩٩٠، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت.

٣٦ - تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، تعديل فريدريش شفالي، نقله الى العربية وحققه جورج تامر، ط - ٢٠٠٨، دار الجمل بالتعاون مع مؤسسة كونراد - أدناور.

٣٧ - تاريخ القرآن الكريم، الدكتور محمد سالم محيسن، ط - ١٤٠٢ هـ، سلسلة دعوة الحق، دار الأصفهاني للطباعة بجدّة.

٣٨ - تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن اسحاق اليعقوبي البغدادي (ت ٢٩٢ هـ)، علق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور، ط ٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٣٩ - تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، ط ١ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٤٠ - تدوين القرآن، كانون سل، ترجمة مالك مسلماني.

٤١ - تطور القرآن التاريخي، كانون سل، ترجمة مالك مسلماني.

٤٢ - تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط ١ - ٢٠٠٠، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٣ - تفسير شُبْر، السيد عبد الله شُبْر (ت ١٢٤٢ هـ)، راجعه الدكتور حامد حنفي داود، دار الكتب العلمية - بغداد.

٤٤ - تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دار إحياء الكتب العربية - حلب.

٤٥ - تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، ط ١ - ٢٠٠٠، دار ابن حزم - بيروت - لبنان.

٤٦ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة - بيروت.

٤٧ - تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، ويليّه كتاب إسعاف المبطأ برجال الموطأ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٤٨ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، دار إحياء التراث الاسلامي - بيروت.

حرف الجيم

٤٩ - جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، دار الفكر - بيروت - ١٩٨٤

٥٠ - الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف، ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤ هـ)، تحقيق الدكتور غانم قدوري حمد، ط ١ - ١٩٨٨، مطبعة العاني - بغداد.

٥١ - جدل التنزيل، مع كتاب كتاب خلق القرآن للجاحظ، د. رشيد الخيّن، ط ١ - ٢٠٠٠، منشورات الجمل - كولونيا - ألمانيا.

٥٢ - جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)، ط - ٢٠٠١، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

حرف الحاء

٥٣ - حذف من نسب قریش، مؤرج السدوسي (ت ١٩٥ هـ)، موقع الوراق/ الأنساب www.alwaraq.net.

٥٤ - ديوان الحطّية، شرح أبي سعيد السكري، ط - ١٩٩٨، دار صادر - بيروت.

٥٥ - الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط ٣ - ١٩٦٩، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

حرف الخاء

٥٦ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي

(ت ١٠٩٣ هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط ٣ - ١٩٨٩،
مكتبة الخانجي - القاهرة.

حرف الدال

٥٧ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ).

٥٨ - الدر النضيد، لابن الحفيد، ط - ١٩٨٠، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

٥٩ - دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، حققه د. محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس، ط ٢ - ١٩٨٦، دار النفائس - بيروت.

حرف الراء

٦٠ - الرد على الجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، ط ١ - ١٩٩٠، دار قتيبة - بيروت.

٦١ - رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، تحقيق د. درويش جويدي، ط ١ - ٢٠٠٤، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

٦٢ - روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الآلوسي البغدادي.

حرف الزاء

٦٣ - الزهرة، لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ود. نوري حمودي القيسي، ط ١ - ١٩٨٥، مكتبة المنار - الزرقاء - بيروت.

حرف السين

٦٤ - ديوان سلامة بن جندل، صنعه محمد بن الحسن الأحول، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط ٢ - ١٩٨٧، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٦٥ - السيرة الحلبية، للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٦٦ - السيرة النبوية لابن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه أحمد فريد المزدي، ط ١ - ٢٠٠٤، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٦٧ - السيرة النبوية لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

حرف الشين

٦٨ - شخصية الفرد العراقي، الدكتور علي الوردي، ط ١ - ٢٠٠٧، دار الوراق للنشر.

٦٩ - شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان.

٧٠ - شرح ديوان الحماسة للشيخ أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي الشهير بالخطيب، عالم الكتب - بيروت.

حرف الصاد

٧١ - الصابئة المندائيون، تأليف الليدي دراوير، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، ط - ١٩٨٧، مطبعة الديواني - بغداد.

حرف الطاء

٧٢ - طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ)، دار

النهضة العربية - بيروت .

- ٧٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط ١ - ١٩٩٠، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٧٤ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط - ١٩٦٠، دار صادر - بيروت .

حرف العين

- ٧٥ - ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر - بيروت .
- ٧٦ - ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه وشرحه الدكتور أميل بديع يعقوب، ط ١ - ١٩٩١، دار الكتاب العربي - بيروت .

حرف الغين

- ٧٧ - غريب القرآن وتفسيره، لابن الزبيدي (ت ٢٣٧ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الرزاق حسين، ط ١ - ١٩٨٧، مؤسسة الرسالة - بيروت .

حرف الفاء

- ٧٨ - فتوح مصر وأخبارها، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، تحقيق وتقديم محمد الحجيري، ط ١ - ١٩٩٦، دار الفكر - بيروت - لبنان .
- ٧٩ - فصوص الحكم، الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ)، اعتنى به الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، ط ١ - ٢٠٠٣، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

- ٨٠ - كتاب فضائل القرآن، للإمام الحافظ ابن كثير، حقق أصله وخرّج حديثه أبو إسحق الأثري، ط ١ - ١٤١٦ هـ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة .
- ٨١ - الفهرست، لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالنديم (ت ٣٨٠ هـ)، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له د. يوسف علي طويل،

وضع فهارسه أحمد شمس الدين، ط ٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٨٢ - في الشعر الجاهلي، طه حسين، تقديم د. عبد المنعم تليمة، ط ٢ - ١٩٩٦، دار النهر للنشر والتوزيع.

حرف القاف

٨٣ - قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة، تأليف العلامة جميل بن خميس السعدي، ط - ١٩٨٣، وزارة التراث القومي - سلطنة عمان.

٨٤ - القرامطة، ميكال يان دي خويه، ترجمة وتحقيق حسيني زينه، ط - ١٩٨٦، دار ابن خلدون - بيروت.

٨٥ - القرآن الكريم.

حرف الكاف

٨٦ - ديوان كعب بن زهير، موقع أدب www.adab.com.

٨٧ - كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع، ط - ١٩٩٦، Watch Tower

Bible & Tract Society Of Pennsylvania

حرف اللام

٨٨ - لسان العرب، لابن منظور.

حرف الميم

٨٩ - مبارك الأزهار في شرح مشارق الأنوار، تصنيف أبي الحسن الصنعاني، شرح ابن الملك، إشراف الشيخ خليل الميس، ط ١ - ١٩٨٦، دار القلم - بيروت - لبنان.

٩٠ - مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني.

- ٩١ - مجمع الزوائد ومنيع الفوائد، ابن حجر الهيتمي (ت ٨٠٧ هـج).
- ٩٢ - كتاب المحبّر، محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـج)، تحقيق محمد حميد الله.
- ٩٣ - محمد، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق د. فاروق أبو زيد، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- ٩٤ - مختصر صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـج)، إختصره ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، ط ١ - ١٩٩٨، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ٩٥ - مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، عني بنشره: ج. برجستراسر، دار الهجرة.
- ٩٦ - المراسيل، تصنيف الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، ط ٢ - ١٩٩٨، مؤسسة الرسالة.
- ٩٧ - المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ميشيل فوكو، ترجمة د. علي مقلد، ط - ١٩٩٠، مركز الإنماء القومي - بيروت.
- ٩٨ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.
- ٩٩ - مسلمة الحنفي: قراءة في تاريخ محرم، جمال علي الحلاق، ط ١ - ٢٠٠٩، منشورات الجمل - كولونيا - بغداد.
- ١٠٠ - المسند، لأبي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، تحقيق وتخريج د.

محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

١٠١ - المسند، للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، حديث (رقم ١٦٤٨).

١٠٢ - المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها الى القرن الرابع الهجري/
العاشر الميلادي، د. سلوى بالحاج صالح - العايب، ط ١ - ١٩٩٧، دار
الطليعة للطباعة والنشر - بيروت.

١٠٣ - معجم غريب القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، دار القلم - بيروت.

١٠٤ - معجم مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣ هـ)،
تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر - بيروت - لبنان.

١٠٥ - كتاب المعارف، لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، ط ٢ -
٢٠٠٣، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٠٦ - كتاب المغازي، للواقدي محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ)،

تحقيق الدكتور مارسدن جونس، ط ١ - ٢٠٠٦، عالم الكتب - بيروت - لبنان.

١٠٧ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، ط ١ -
٢٠٠٦، آوند داناش للطباعة والنشر.

١٠٨ - مقالات في تاريخ القرآن وصدر المتألهين الشيرازي، أبو عبد الله
الزرنجاني.

١٠٩ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر، ط ١ - ٢٠٠٩، دار
الوراق للنشر.

١١٠ - ملحمة كلكامش، طه باقر، ط ١ - ٢٠٠٦، دار الوراق للنشر
المحدودة - لندن.

١١١ - موجز تاريخ الزمن، ستيفن هاوكينغ، ترجمة باسل محمد الحديثي،

ط ١ - ١٩٩٠ ، دار المأمون - بغداد .

حرف النون

١١٢ - ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه الدكتور واضح الصمد، ط ١ - ١٩٩٨ ، دار صادر - بيروت .

١١٣ - ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف بمصر .

١١٤ - نسب قریش، مصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ)، موقع الوراق، المكتبة التراثية/ الأنساب www.alwaraq.com .

١١٥ - نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ)، تحقيق الدكتور نصرت عبد الرحمن، نسخة مكتبة الوراق www.alwaraq.com

حرف الواو

١١٦ - الوحي والقرآن والنبوة، هشام جعيط، ط ٢ - ٢٠٠٠ ، دار الطليعة - بيروت .

١١٧ - الوثنية في الأدب الجاهلي، الدكتور عبد الغني زيتوني، ط - ١٩٨٧ ، منشورات وزارة الثقافة - دمشق - سوريا .

المقالات

- ١ - خروج الأحناف بحثاً عن الدين : أحناف الحجاز ونجد نموذجاً، جمال علي الحلاق، www.alawan.com
- ٢ - الدين الكوني، أنشتاين، ترجمة عدنان عاكف، موقع الأوان www.alawan.com
- ٣ - السومريون أوائل من كتبوا التاريخ في وادي الرافدين بقلم: توما شماني، موقع منتدى المعرفة البيطرية www.veterinaryknowledge.mam9.com
- ٤ - العالم كما أراه، أنشتاين، ترجمة عدنان عاكف، موقع الأوان www.alawan.com

مصادر أجنبية

- 1- The rough guide to Nepal, by David Reed, James McConnachie.
- 2- Einstein his life and universe, by Walter Isaacson.
- 3- Interview with Zecharia Stchin,
[www.illuminate - news.com](http://www.illuminate-news.com)
- 4- The mind of god, by Paul Davies.
- 5- Dictionary of Islam, by Thomas Patrick Hughes.
- 6- Webster's New Universal Unabridged Dictionary, 1996, Barnse & Noble Books.
- 7- The Hebrew Names for God - Elo him.
www.hebrew4christians.com
- 8- www.JewishEncyclopedia.com (Elohim)
- 9- New Catholic Encyclopedia, second edition - 2003
- 10- Nobel physicist designing 'toy' black hole for research Bhargavi Kerur. www.dnaindia.com
- 11- Scientists Create Hottest Temperatures Ever.
www.Indyposted.com
- 12- God, Time & Stephen Hawking: An exploration into origins, by David Wilkinson.
- 13- Uncensored, issue 19: March - June 2010.
- 14- Probing Deep Space, Giles Sparrow, 2006.
- 15- Who Wrote the Book of Physics? By Adam Frank, Discover Magazine, April 2010.
- 16- Origins of the Universe, by Albert Hinkelbein.
- 17- The World's First Temple?, by Andrew Curry,
Www.Smithsonian.com

المحتويات

مدخل عام ٩

المبحث الأول

المعرفة الجديدة تخلق إلهها الجديد

تمهيد ١٧

أ- الإله يحب أن يتخفى ١٧

ب- العلم والميتافيزيقيا ١٧

ج- التوحيد تفسيق إجرائي ١٩

د- الجلوس على العرش ١٩

هـ- المعرفة تتجاوز حدود الغيب ٢٠

و- التجول بين الآلهة ٢١

الفصل الأول ٢٣

ولادة إله جديد ٢٣

أ- قفزة طويلة قبل أوانها	٢٣
ب- أنساب الآلهة	٢٥
ج- تصاهر البشر والآلهة	٢٦
د- الجنس كاتصال معرفي	٢٧
هـ- فضائيون على الأرض	٢٩
الفصل الثاني	٣٣
إله في الأسر	٣٣
أ- حظوظ الآلهة	٣٣
ب- أبي وصدمة المقدس	٣٧
ج- نماذج أخرى لآلهة في الأسر	٣٩
د- علاقة الأسر بتغير لسان الإله	٤٠
هـ- التضييق شكل من أشكال الأسر	٤٠
الفصل الثالث	٤٣
إله دائم التجدد	٤٣
الفصل الرابع	٤٧
إله آئنشتاين Einstein's god	٤٧
أ- مدخل أولي	٤٧
ب- إله كوني	٤٨
ج- الإله صديق ذكي	٥٠
د- التطابق مع عقل الإله	٥٠
هـ- الإله الفيزيائي بلا مشاكل إجتماعية	٥١

٥٣ الفصل الخامس
٥٣ إله ستيفن هاوكنغ (Stephen Hawking's god)
٥٣ أ- أزمة اليقين إزاء الاحتمال
٥٤ ب- آلهة فيزيائية متقابلة
٥٥ ج- متاهة الإله الجديد
٥٦ ١ - فجوة ما قبل الانفجار الكبير
٥٧ ٢ - فجوة الثقب الأسود

المبحث الثاني

الانتشار الجغرافي لعبادتي الرحمن واللّه في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

٦٣ أ- تمهيد
٦٤ ب- أضع الشمس خلفي
٦٤ ج- هجرة الاعتقاد
٦٩ الفصل الأول
٦٩ الانتشار الجغرافي لعبادتي الرحمن الله في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام
٦٩ أ- تمهيد
٧٠ ب- الرحمن لغة
٧٣ ج- لا علاقة للرحمن بالرحمة
٧٤ د- ملاحظة جانبية
٧٥ هـ- العمق الزمني لعبادة الرحمن
٧٧ و- الانتشار الجغرافي لعبادة الرحمن

٧٩..... ٤ - تلييات بعض القبائل وهي تتجه للحج

٧٩..... ٥ - التسمية بعبد الرحمن

٨١..... الفصل الثاني

٨١..... الإنتشار الجغرافي لعبادة (الله) في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

٨١..... أ- تمهيد

٨٢..... ب- الله لغة

٨٣..... ١ - أُلَآهَة :

٨٣..... ٢ - اَللّٰهُم :

٨٦..... ٣ - لَاهُتَم :

٨٩..... ٤ - الإله :

٩٠..... ٥ - الخلاصة

٩٣... ج - الانتشار الجغرافي لعبادة الله في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المبحث الثالث

الجذر التاريخي العميق لسورة الفاتحة

٩٩..... تمهيد

١٠٥ الفصل الأول

١٠٥ الصيغة النهائية للنص

١٠٧ سورة الفاتحة

١٠٧	قراءة أولى سريعة
١٠٩	الفصل الثاني
١٠٩	أسماء سورة الفاتحة
١١٥	الفصل الثالث:
١١٥	جدل البداية الأولى
١١٥	أ- تمهيد
١١٥	ب- عقبة أولى
١١٧	ج- أسئلة تقود البحث
١١٩	الفصل الرابع
١١٩	الفاتحة أول السور نزولا
١٢٣	الفصل الخامس
١٢٣	موقف عبد الله بن مسعود من سورة الفاتحة
١٢٤	أ- إسمه ونسبه
١٢٤	ب- إسلامه
١٢٤	ج- مصحفه وعلمه
١٢٦	د- موقفه من سورة الفاتحة
١٣١	الفصل السادس
١٣١	ما نزل من القرآن على لسان آخرين
١٣٢	أ- نزول القرآن على لسان الصحابة
١٣٣	ب- تثبيت كلام الدهريين والروثيين داخل متن النص المقدس
١٣٤	ج- دور الأحناف في عملية إنتاج النص القرآني

١٣٥	١ - أمية بن أبي الصلت
١٣٦	٢ - خالد بن سنان العبسي
١٣٧	٣ - قس بن ساعدة الإيادي
١٣٩	الفصل السابع
١٣٩	سورة (الفاتحة) نهاية جدل حنفي عميق
١٣٩	أ - كلمات ومفاهيم غامضة
١٤٠	ب - أخطر وأهم رجل حنفي قبل الإسلام
١٤٢	ج - التكفير ليس عربيا
١٤٢	د - تأثير زيد بن عمرو بن نفيل على محمد بن عبد الله
١٤٤	هـ - علاقة زيد بن عمرو بن نفيل بسورة الفاتحة
١٤٧	و - طه حسين والشك السلبي

المبحث الرابع

الشكل الأول والصفحة الأولى

لسورة الفاتحة

١٥٣	الفصل الأول
١٥٣	سورة (الفاتحة) بدون بسم الله الرحمن الرحيم
١٥٩	الفصل الثاني
١٥٩	ما تكرر نزوله من القرآن
١٦٣	الفصل الثالث
١٦٣	قراءة في تكرر نزول الفاتحة
١٦٣	أ - إنتاج السورة على مرحلتين

- ب- تحويل القبلة وإشكال التكرّر ١٦٤
- ج- السورة تخلو من إسم الرحمن ١٦٥
- د- قدوم وفد اليمن الى المدينة ١٦٦
- الفصل الرابع ١٦٩
- سورة الفاتحة كما كانت تُقرأ أول مرة ١٦٩
- أ- الصيغة الأولى للسورة ١٦٩
- ب- تخريج النص ١٧٠

الملاحق

- الملحق رقم (١) ١٧٥
- إختفاء الفاتحة في مصحف علي بن أبي طالب وجعفر الصادق ١٧٥
- [1] رسالتي الى السيد آية الله علي السيستاني ١٧٧
- [2] الرد على رسالتي من قبل السيد السيستاني أو أحد رجال مكتبه ١٧٧
- الإعلامي ١٧٩
- الملحق رقم (٢) ١٨١
- مصادر الكتاب ١٨٣
- حرف الألف ١٨٣
- حرف الباء ١٨٦
- حرف التاء ١٨٦
- حرف الجيم ١٨٨
- حرف الحاء ١٨٨
- حرف الخاء ١٨٨

١٨٩	حرف الدال
١٨٩	حرف الراء
١٨٩	حرف الزاء
١٨٩	حرف السين
١٩٠	حرف الشين
١٩٠	حرف الصاد
١٩٠	حرف الطاء
١٩١	حرف العين
١٩١	حرف الغين
١٩١	حرف الفاء
١٩٢	حرف القاف
١٩٢	حرف الكاف
١٩٢	حرف اللام
١٩٢	حرف الميم
١٩٥	حرف النون
١٩٥	حرف الواو
١٩٧	المقالات
١٩٩	مصادر أجنبية

هذا الكتاب

سيكون من السهل إستيعاب هذا الكتاب إن كان لدى القارئ إستعداداً على تقبُّل فكرة - تبدو في غاية المنطقية والعقلانية إلا أنَّ نتائجها - تتقاطع تماماً مع إرثٍ تاريخيٍّ طويلٍ وثقيلٍ، يعمل على غلق مسامات التنفُّس في عالمٍ مختلفٍ. أي أنَّ ما نعرفه لا يعني كلَّ المعرفة، وما نؤسِّس عليه قد لا يكون صليداً مثلما نتوقَّع، بل لعلَّه الفراغ بذاته، وليس غريباً أن تنهض أمةٌ بأكملها على فراغ.

